رحلة في قطار
مروة قباني

رحلة في قطار

مروة قباني

بقلم (ك) للنشر الإلكتروني

نوع العمل: رو اية

الكاتب / الكاتبة: مروة قباني

تصميم الغلاف: سمر الهشوم

تصميم داخلي: غادة عبد الرحمن

تعبئة وتنسيق: مها الجندي

تدقيق لغوي: نجوان محمد

فريق عمل بقلم(ك) للنشر الإلكتروني

تحت إشراف:

غادة عبد الرحمن &دينا عبد الفتاح

تذكر أنك قرأت هذا على موقع

دار بقلم(ك) للنشر الإلكتروني

كتب دار بقلم(ك) للنشر الإلكتروني

انشر معنا على الموقع وتواصل معنا مباشرة

«««للنشر والإعلان والتواصل معنا اضغط هنا»»»

بقلم(ك) للنشر الإلكتروني

الإهداء

إلى الحياة التي علمتني معنى الذهاب نحو وجهة السعادة مهما بَدَت أمامي بعيدة المدى، أن أركب القطار للذهاب إلى المحطة التي تأخذني نحو وجهتي، وأن لا أحاول الفوز في جميع المعارك كما لو أنها آخر الدنيا.

وإلى أشقائي الثلاث الذين علموني كيف أكون قوية بنفسي وأثق بقدرتي على القيام بكل ما أحلم به دون تردد.

إلى من استقل أول رحلة في القطار؛ كي لا تفوته فرص النجاح سأقول لك فلتنهي هذه الرحلة عند أول محطة، اصبر حتى تأتي رحلتك الخاصة بك، أن تصل متأخر خير لك من الذهاب إلى طريق لا يشبهك.

إلى السعادة والطمأنينة التي لم أذق شعورًا يضاهيها في أعماقِ قلبي، وإلى تلك الأيام القليلة والجميلة التي أعادتني إلى نُقطة البداية وعلَّمتني أن أعيش الحياة لا أن تَعيش داخلي، في المكانِ الأقدس ألا وهو (**مكة المكرمة والمدينة المنورة**).

وإلى صديق العُمر الذي لم يجعلني أشعر بالغربةِ بالرغم من وجودي في تلك الفترة لوحدي.

إلى كُل الذين يشعرون بأنهم لم يعودوا قادرين على العودة إلى نقطة الصفر، ما يزال الوقت باكرًا على النطقِ بالحُكم، لا تموتوا قبل أن تموتوا.

المحطة الأولى: "بداية الرحلة"

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر صباحًا حينما وصلتُ إلى محطة النسيم عبر سيارة الأجرة الخاصة بالفندق والذي مكثتُ فيه قرابة الأربعة أشهر الماضية، لم يكن ذاك الفندق الأخير يتمتع بنجمة واحدة على الأقل كالذي قاموا باستضافتي داخله المقيمين على معرض الكتاب الدولي في الدار البيضاء لمدة شهر كامل، ولم أستطع نسيان ذاك الشهر الأول الذي عشته داخل المغرب، لمدة ثلاثين يومًا تمتعت من خلاله برفاهية النجوم وصخب المشاهير-اليوتيوب- لكن من خلال عالمي الأحب على قلبي.

زرت خلال تلك الفترة معالم وآثار كثيرة منها:

- مسجد الحسن الثاني الذي استغرق بناؤه قرابة 16 عامًا (1987 – 1993) وهو أكبر مسجد في العالم بعد الحرمين، شيد فوق الماء وتبلغ مئذنته 210 مترًا، ويسع 25.000 مُصلّ في الداخل و80.000 في الباحة.

- المدينة القديمة: وهي مجموعة من الأسوار تحيط بمدينة الدار البيضاء القديمة، وبها عدد من المباني التاريخية كالصقالة ومنارة الحنك وساحة "لا كوميدي"، وقبة "سيدي أبو سمارة".

- حي الأحباس الذي شيد في فترة الحماية، وهو من المعالم السياحية الكبرى بمدينة الدار البيضاء، له بُعد ثقافي وحضاري تحكيهما أقواسه وبناؤه المعماري العربي والإسلامي مختلط بهندسة أوروبية.

- كورنيش عين الذياب، ويمتد على طول الشاطئ كواجهة بحرية تضم سلسلة مسابح وفنادق ومطاعم، ويتم تطويره بشكل مستمر لجعله وجهة للترفيه والاستجمام.

- شارع محمد الخامس حيث تجمع المباني على جنباته بين الأصالة العربية والإسلامية التقليدية، والهندسة الفرنسية، والمباني العصرية، ويؤرخ هذا الشارع لقرابة قرن من الزمن.

واصلت الدخول إلى محطة القطار عبر البوابة الضخمة مرورًا نحو قاطع التذاكر حاملة معي حقيبتي الكبيرة بداخلها ملابسي وأغراضي، وعلى كتفي حقيبة صغيرة وضعت داخلها أوراقي الثبوتية والمهمة تضمنها بوردن الطائرة وإقامتي كسائحة تثبت جلوسي بشكل قانوني يحميني من المخالفات والمسائلات القانونية.

قال لي الموظف بصوته الرتيب: تبقى لوصول القطار ساعة واحدة فلتذهبي نحو المقاعد بانتظار وصوله سيدتي.

كان يتحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة وكأنها لغته الأم على عكسي تمامًا؛ فقد احتجت لقرابة الخمس دقائق لترجمة الكلام الذي يقوله للعربية قبل أن أذهب نحو البهو المفضي إلى الساحة والجلوس على أقرب مقعد خشبي بانتظار وصول القطار.

الهدوء يعطي طابع عن المكان بالأناقة والفخامة الممزوجة بعراقة التاريخ، بينما ينبعث عبر المذياع موسيقى هادئة بنغمات فيروزية، يدخل إلى البهو بعض المسافرين بين الفترة

والأخرى، كما أنه لا يخلو من الأشخاص القادمين بانتظار وصول أحد القادمين يحمل أحدهم بيده باقة توليب، مجموعة من الفتيات يحملن باقة ورد جوري أحمر، البعض من الشوكولاتة يعانقها طفل يبلغ من العمر سبعة سنوات.

أنظر إلى الوجوه فأعلم من الراحل عن الوطن بينهم، تراه يطيل النظر معانقًا المكان ساهم الطرف يقبله الجميع والدموع تنهمر من أعينهم هو الراحل بجسده لا قلبه، تذكرت اليوم الذي رحلت به عن غاليتي دمشق، لم أستطع حملها معي لكنني حفرتها داخل تلافيف دماغي وبين شغاف القلب.

عن عائلتي التي قاسمتني آمالي وأحلامي في الوصول نحو النجاح، لكنها لم تكن قادرة على رؤية الفرح إلا من خلال الشاشات الإلكترونية، وعن ذاك الحب الذي عانق قلبي بالرغم من بعد المسافات.

تنهيدة واحدة أحرقت صدري، رددت في نفسي: لا أعلم ما هو السبب الذي يجعل الناس يشعرون بقيمة أحبائهم في لحظة الفقد أو الرحيل، ترى ما الذي يجعل الحب في أوجه وتألقه في هذه اللحظات؟ وما هو الشيء الذي يدفع الناس للبوح بمشاعرهم في اللحظات الأخيرة والتي يتبعها فراق طويل أو رحيل؟ أهذا لأننا نشعر بحجم الضياع والحزن ويثقل علينا الوداع؟!

بعد مرور ربع ساعة جلس أمامي شاب في العقد الثالث من العمر، ملامح وجهه تعبر عن كونه مغربي الجنسية، مربوع الطول أسمر البشرة، يحمل حقائب مختلفة الحجم اثنتين منهما يحملهما فوق كتفيه أما الحقيبة الأخيرة كانت كبيرة الحجم

يمسكها بقوة، يجرها على الأرض عبر الدواليب الصغيرة المثبتة أسفلها.

يبدو عليه حماس الشباب، كان ينظر نحو الأشجار المزروعة بانتظام في أرجاء المكان، يأخذ أنفاسه بصعوبة؛ لذلك أمسكت قارورة الماء أمدها إليه دون التفوه بأي كلمة، وفي ذات الوقت أخذها مني وهو يتلفظ بعبارة شكر دون النظر إلي أيضًا.

شعرت ببرودة أقشعر لها جسدي بسبب تلك النسمة الباردة التي لفحت المكان لتنبئ عن هطول المطر، فدعوت الله أن لا تتأخر الرحلة بسبب حالة الجو أو تعرقلها إذا ما هطلت هذا الصباح.

حطَّ ببغاء صغير على المكان المخصص للطيور إلى جانب المقعد، ألوانه الزاهية تبعث في النفس الراحة، جمال مظهره يشي عن كونه قد هرب من مُلَّاكه قبل بضع دقائق.

كان ينقل نظره بيني وبين الشاب الجالس على مقربة مني والذي انهمك بقراءة كتاب معين مستغرق داخل عالمه الخاص، لا يسمع أو يرى أحدًا.

بينما أخرجت علبة السباجيتي بصلصلة البندورة التي طلبتها لأخذها معي من المطعم الصغير والذي كان يُعدُّها بطريقة منزلية.

فكرت لبضعة ثواني قبل أن أقرر البدء في تناولها مع تناسي وجودي في مكان عام، تلك اللحظات الفاصلة عن اندماجي بشفط الشرائط الطويلة، أعادني للواقع صوت ضحكة مكتومة

لالتفت وأجد الشاب يضحك بسرِّه وهو ينظر إلي بطرف عينيه، مما أخجلني بشكل مربك لأعيدها نحو الحقيبة.

شعرت بالتململ وأنا أطالع نظري بين المارة والشاب والببغاء، لذلك قررت إرسال رسالة على الشات الجماعي والخاص بالعائلة ليطمئن الجميع علي وإخبارهم بمكاني، ربما وجدت أحدًا يشاركني الوقت الطويل قبل وصول القطار.

حينما سمعت صوتًا يخترق الفضاء من حولي يتحدث عن قرب، التفت يمينًا ويسارًا لكنني لم أرى أحدًا؛ لذلك عاودت النظر إلى الهاتف قبل أن يأتيني النداء:

- أنا هنا مريم! انظري إلي..

عاودت النظر في جميع الاتجاهات، لم يكن أحدًا على مقربة، وما يزال الشاب مستغرق في قراءة الكتاب.

حككت رأسي بباطن كفي باستغراب لم يبقى إلا الببغاء أن يكون المتحدث همستُ في سِرّي، ضحكت بتهكم على نفسي ولكنني لمحت الببغاء يتحدث وأنا أعاود الالتفات نحو الجهة الأخرى ولكن هذه المرة لم يسكت حينما نظرت إليه بل واصل التحديق بي وهو يتحدث من خلال منقاره بصوت لا يشبهه بشيء كطائر:

- هل سمعتِ يومًا عن أسد يحاول إثبات نفسه وهويته أمام الجميع، بالتحدث عن صفاته وأخلاقه الحميدة بين فصيلة الحيوانات، أم أنَّكِ تجدينه يزأر ويقوم بما تمليه عليه

فطرته في هذه الحياة بالجلوس على عرش الغابة، والتحكم بقوانينها بقوة وصبر؟!

أنهى الببغاء حديثه وهو يميلُ برأسها نحو ماجد الطبيب الذي كان يجلس إلى جانبها، ينتظر القطار للذهاب نحو منزل العائلة وقضاء فترة العطلة الصيفية المقبلة كما أخبرها لاحقًا.

للوهلة الأولى اعتقدت كونها الوحيدة التي سمعته يتحدث، قبل أن يلتفت إليها وهو يقول بلهجة عربية فصحى:

- هل سمعتي الببغاء يتحدث مثلي أم أنني الوحيد الذي يتوهم سماع الببغاء؟ "يتحدث وهو ينظر إليه"

بل إنه جزم فهمه لكل كلمة يقولها وكأنه تعلَّم لغة الطيور بدقائق معدودة.

أومأت برأسي كموافقة أنني سمعته يتحدث ويتفرس وجهه وكأنه يعرفه.

أعادنا للواقع صوت بوق القطار يعلن عن بدء الرحلة الأولى للذهاب نحو المحطة الثانية ، كان هذا الإنذار هو الأخير، كما أخبرنا الحارس الواقف أمامنا للإسراع في الدخول إلى القطار وأخذ مقاعدنا المخصصة لكل واحد حسب الرقم على البطاقة التي كانت بحوزته.

بدون أي تفكير قام كل واحد بأخذ أغراضه والذهاب نحو الطابور الخاص بالمسافرين، قبل أن ألمح داخل حقيبته روايتي التي شاركت بها داخل معرض هذه السنة -رفعت الجلسة- برفقة كتاب عن الثقة بالنفس وتنمية العادات.

لم أستطع التحدث إليه، أو اقتطاع وقت لرؤية ملامح وجهه بدقة أكبر لذلك لُذتُ بالصمت وأنا أتجه إلى باب المقطورة الخاصة بالركاب للذهاب نحو وجهتي القادمة.

ما أصغر هذا الكون حينما يُرتِّبُ لنا القدر اللقاء الغريب الذي يقوم بقلب حياتنا رأسًا على عقب، يعيد ترتيب حياتنا أفكارنا ومبادئنا، ننظر إليها من زاوية أخرى نعتقد أننا نرى الأشياء بوضوح منذ أمد بعيد ثم نكتشف وجود حائط يخفي عنا أشياء

كثيرة، مثل أن يقيم الإنسان في مكان ما، وهو الذي لم يفقه شيئًا عن جغرافية وطنه، يشعر بالرطوبة تعتلي الهواء فيمقتها بسخط، وتتسلل البرودة ليلًا أنحاء جسده النحيل فيزدرد غضبًا لسوء حظه باختيار المكان الأنسب للعيش، وتمرُّ السنين ليسقط ذات يوم ذاك الجدار العالي والقديم فيظهر من ورائه البحر الأزرق بجماله الأخَّاذ.

فقط في تلك اللحظة يدرك بأنه عاش إلى جانب هذه الطبيعة الخلابة لمدة تقارب العقد دون رؤيتها بوضوح أو حتى معرفته بطيب حظه العاثر.

والأسوأ من ذلك كله هو معرفته المتأخرة بالأمر بعد بيعه للمنزل والرحيل عن تلك المنطقة.

هكذا نحن لا نرى الأشياء بوضوح إلا بعد فوات الأوان، بل حتى يزيد الأمر بؤسًا، لا نشعر بالأسف اتجاه الأشخاص الذين أحبونا بصدق وإخلاص ورفضناهم إلا بعد رؤيتنا للأشرعة ترفرف في السماء تُعلن رحيل قواربهم عن الشاطئ، في تلك

المرحلة الرابح بيننا خاسر، البعض منهم لم يستطع أخذ الشغف من داخل أرواحنا فشاركونا أحلامنا حتى كبرت وأحرقوها أمام أعيينا دون رحمة؛ لنعيش على رمال البحر ننتظر فرصة أخرى للقاء متجاهلين تلك الفرص التي تمرُّ من خلالنا حتى يتقدَّم بنا العمر ونوقن فداحة أثمنا بالتعلق في ماضٍ لن يعود وحرق سفننا للإبحار نحو المستقبل، ولأننا عشنا الحاضر عالقين داخل أوهامنا دون فائدة، نضع الجرح فوق الجرح وندمي القلب حافرين بين ثنايا الروح قصة فشلنا في اجتياز هذه الحياة أو فهمها، تصبح حياتنا سلسلة فشل ويأس حتى نرى روعة الشباب قمة العجز.

اجتزت الممر وأنا أنظر إلى أرقام المقاعد، كان الركاب يقومون بوضع الحقائب في المكان المناسب، بعض الأمهات يُمسكن أطفالهن الصغار يقمن بإعطائهم القليل من الحلوى مع تنظيم أماكن الجلوس، ومحاولة لخفض الضجة التي أحدثها بكاء أحدهم بسبب قلة النوم أو مشقة السفر.

بعد عشرة خطوات وجدت المقعد الخاص بي على الجانب الأيسر فأمسكت حقيبتي الكبيرة لأقوم بوضعها في المكان المخصص للحقائب، وأنا أجلس إلى جانب النافذة مراقبة للطبيعة الخلابة من خلالها.

حينما سمعت صوته يُمزِّقُ الصمت الذي حلَّ أرجاء المكان بعدما أخذ كل واحد من المسافرين مكانه داخل القطار أخذ يقرأ بصوت عالي:

الثقة بالنفس هي أولى مفاتيح النجاح للوصول نحو السعادة، وأنا لا أقول لك أنَّك ستحقق جميع أحلامك المستحيلة قبل الممكنة والتغلب على جميع الصعوبات، ستمرُّ عليك لحظات فشل وانكسار تحسبُ نفسك أنَّك لن تستطيع الوقوف بعدها، وهنا يكمن سرُّ المفتاح الأول من محطات رحلتنا نحو السعادة الداخلية والخارجية معًا، وهو أن تعلم حجم جهودك المبذولة لتحقيق هذه الأهداف، وكيفية استثمار وقتك وطاقاتك الكامنة، وكيف تحقق هذا الهدف و متى تحققه وأين؟!

وبذلك تعرف جيدًا ما تجيد عمله باحترافية وتميّز فتقوم بتنمية مهاراتك بالقراءة المكثفة، والتدريب المستمر بشكل عملي، مع استكشاف كل جديد ضمن هذا المجال؛ كي لا يفوتك شيء.

لا أعلم إذا ما كان يقرأ تلك السطور ليُبدد وحدته أو ليقنع نفسه بصحة تلك الكلمات، لكن ما جعلني أضحك كما لم أفعل من قبل هو رؤيتي الطائر الصغير يطير نحوه وكأنه يعرف مكانه تحديدًا ويحطُّ على طرف مقعده، ينقرُ أصابع يديه بشكل سريع، شعر بنقرة قوية فوق أصابع يده آلمته بشدَّة حتى أنَّه أسقط الكتاب من بين يديه.

وقد ندَّت عنه صرخة قوية جعلت أنظار جميع الحاضرين تتجه نحوه، مما أربكه وجعله يجلس ملصقًا الكتاب بوجهه لفترة طويلة.

أحمرَّ وجهه وأمتقع عندما رأى الطائر الصغير يجلسُ إلى جانبه مجددًا.

- أهذا أنت أيها الطائر الصغير؟!

قالها بغضب شديد وهو يشير بأصبعه المجروح نحو الببغاء غريب الأطوار، وكأنه يثق بفهمه له.

تراجع الببغاء نحو الوراء بقفزات صغيرة، وقام بفتح الحقيبة الجلدية التي كانت بحوزته بمنقاره المُدبب ليخرج منها لاصقات طبية للجروح، هذه المرة لم يتحدث أو حتى ينظر إليه بل أكتفى بإعطائه اللاصق الطبي والتحليق إلى خارج القطار ودون سابق إنذار!

أمسك ماجد يده بإحكام وقام بتعقيم الجرح وهو يضع الضماد بشكل جيد، قبل أن يُعدِّل جلسته مرة أخرى.

هذه المرة لم تكن دهشته من جلوس الببغاء مقابلًا له، إنما رؤيته لشابة سورية في العقد الثاني من العمر ترتدي نظارة طبية بملابس ريفية بسيطة، تعلو ملامح وجهها ابتسامة واسعة، عيناها الصغيرتين تلمعان بشغف كبير، تجلس أمام النافذة تتأمل الطبيعة الخلابة من خلالها.

تارة تمسك بغصن شجرة يقترب منها، لتعود عينيها وتتأمل السماء الصافية والمروج الخضراء، الشجر المثمر بالأزهار الجميلة والمختلفة.

كانت تلك الفتاة هي نفسها من جلست إلى جانبه على مقاعد الانتظار، ولكم كانت غريبة الأطوار وهي تنظر إليه ببلاهة، وتبتسم بشكل لا يفهمه.

أعاد ماجد فتح الكتاب مرة ثانية نحو القسم الأخير من الكتاب، هذه المرة لن يقرأ بترتيب معين بل بطريقة عشوائية، محاولًا تمضية وقت أكبر بإشغال نفسه عن

التفكير بتلك الأحداث الغريبة، أو الطائر الصغير الذي اختفى فجأة كما ظهر أول مرة!

نظر إلى السطر السابع عشر:

"هذه المعركة لم تكن لك، فيها تتساوى الخسارة بالفوز، لن تستطيع إثبات أي شيء من خلال فوزك، لن يلمح أحد مقدار جهودك أو حتى تميُّزك داخل مضمارها، ترفَّع عن سفاسف الأمور وخذها على قدرِ ثقتك الكبيرة بتميزك لا شيء أجمل من أن تحيا الحياة دون المراوغة أن تعلم بأن المُرَّ يمرُّ بصعوبة وأن الحياة ستعطيك الشيء القليل من حُلوها لا أكثر، لكنك راضٍ عنها.

الغد لن يكون الأفضل، ولن تكن قادر على تحقيق جميع رغباتك وأمنياتك، أنت حصيلة نفسك وقدراتك، لكن تذكر لا يتوجب عليك أن تكون عبقري، أو فاحش الثراء، أو مُلهِم للنجاح تلمعُ كالنجوم".

أن تقترب من نفسك وتتعايش معها بسلام وأمان، أهم بكثير من عيشك حياة لا تشبهك في شيء.

أنهى قراءة السطر الأخير من الصفحة مُغلقًا الكتاب وهو يغمض عينيه تاركًا نفسه للفراغ الكبير المحيط به، حتى شعر كما لو أنَّه يسبح داخل بحر تلاطمه أمواجه دون تخطيط، هو الذي لم يكن يفضِّل العشوائية حتى في طريقة أكله.

وقعت عينيه على الرواية التي قام بتأجيل قراءتها أربعة وثلاثين مرة إلى أن اتخذ قراره النهائي بأخذها معه في رحلة

القطار هذه والتي سوف تتضمن الجلوس لمدة يوم كامل بين المحطات.

لم تكن تلك الرواية من إحدى التصنيفات المُحببة إليه لكونها تتضمن الفئة البوليسية والتاريخية معًا، بل ما جذبه إليها هو تقرير الكاتبة التي قامت بالاعتراف بكونها أسوأ رواية قامت بتأليفها على مدى سنوات عمرها، فهل حقًا كانت تعني كلامها أم كانت ترمي بذاك التقرير على سبيل الشهرة وازدياد فضول القراء من حولها.

الجميع يعرف بأننا نتحدث وننشغل بصنفين من الأعمال وهما الأفضل والأسوأ على الإطلاق، وقد رأى ماجد بأن الكاتبة اختارت الطريق الأسهل والأخطر للبدء بمسيرتها المهنية وإنهائها معًا.

وقد حققت نجاحًا كبيرًا في حجم المبيعات للنسخ الورقية مقارنة برأيها الشخصي حينما قالت: " رُفِعَت الجلسة روايتي الأولى وربما تكون الأخيرة، لقد عانيت كثيرًا وأنا أقوم بكتابتها، قمت بحذف الكثير من المقاطع، واطلعت على تاريخ شعوب كثيرة لكن دون فائدة تذكر، كانت تلك الرواية قد بدأت بتخيلي لمملكة الدم المقدس البروفيسور محمد وأماليا، لأقوم بتعديلها ووضعها ضمن المحاكم

دون سبب واقعي ربما لتضييقها أو حتى جعلها غير مألوفة للقارئ، وعندما أنهيتها لم أعرف ما الذي يتوجب علي فعله؟!

هل أدعها كما هي وأقوم بنشرها، أم أقوم برميها في أقرب سلة مهملات أو أضعها على الرف المخصص للمسودات كما فعلت مع البقية؟!

أما الآن فأنا أعترف أنني قمت بإرسال جندي إلى معركة دون سلاح أو حتى تدريب ليقال عني كاتبة وقد قيل، فلتذهب إذًا تلك الرواية للجحيم.

من يريد شراء نسخة وقراءتها فليفعل، لكن من أراد تقييمها على أنها رواية فأنا أقول له اليوم بأنها مجرد تخيلات لا تعني الواقع أو حتى التصنيفات الأدبية فلتمُرَّ بين الكلمات آخذًا معك ما تشاء ولترمي البقية في أقرب بركة ماء فهذه الرواية لن تنفعك بشيء، وقد أُعذِرَ من أَنذَر.

أمسكها وهو يقوم بتقليبها في كُلِّ اتجاه، متوسطة الحجم بألوان زاهية يعلو غلافها صورة مرسومة لمطرقة خشبية و ميزان العدل تحمله امرأة معصوبة العينين تقف بشموخ.

أسند ظهره نحو الخلف قبل أن يقلب الصفحة ويبدأ القراءة بعد أن عرف أنه ما يزال لديه ساعة على الأقل للوصول نحو المحطة التالية.

في تلك اللحظة لمعت صورة ميرال داخل رأسه خطيبته السابقة، التي غادرها لأجل أفكارها الغريبة والمجنونة كما وصفها، لكنه أحبها من أعماق قلبه.

كان يلاحقها كظلها وكيفما ولَّت وجهها، مُمسِكًا بروحها مُعتنِقُها كمبدأ في هذه الحياة، حينما انفضَّ الجميع عنها، مشَت داخل طرقاتها لوحدها، هائمة نحو المجهول، برفقة ظِلِّها الذي كان أنيس وحدتها وصديقها الأقرب إليها، حتى أصبحت أنجح طبيبة.

عندما اِلتفتت إلى الخلف للمرة الأولى علمتْ أنَّه لم يكن مُجرَّد ظلٌّ لا يملك ملامح واضحة كان هو.

ميرال المبدأ الوحيد الذي خسر الرهان داخله، عندما أدرك بأن سعادتها لن تُخلقَ داخل ظِلِّه، بكونها لا تنتمي إليه، أو أنه لم يكن وطنها الذي أعتقد.

المحطة الثانية: " مملكة من الخيال"

بدأ ماجد قراءة الرواية بصوت مرتفع قليلًا علَّهُ يستطيع الدخول نحو أعماق الرواية وفهمها، وقد تخيَّل حجم التعقيدات التي ستظهر له داخلها من خلال رأي الكاتبة بما أنجزته، وكما يقال: أهل مكة أدرى بشعبها!!

رواية: رُفِعَت الجلسة

الإهداء

إلى أوطاننا الغالية على قلوبنا، وإلى أرواح من كانوا أبطالًا ذات يوم لكنَّهم كانوا أكبر من جعبة التاريخ، رجالًا لم يجدوا ناقة تحملهم عليها ليذكروا في الوقت الحاضر، فعادوا إلى أماكنهم وأعينهم تفيض من الدمع على ما آل إليه حال أحفادهم من بعدهم.

إلى أبي الذي أعطانا الحب وعلمنا إياه، لكنَّه مشى وتوارى إلى الظلِّ بعد تلك السنين الطويلة كما يفعل كل فارس شجاع.

تنبيه: هذه الرواية وإن ذُكِر داخلها البعض من التواريخ الصحيحة لحضارة مصر والفراعنة إلا أنها خيالية بأحداثها ومحتواها والشخصيات القائمة عليها، وهي ليست من التاريخ ولا من البحوث العلمية، وإنما هي مجرد خيال في ذهن الكاتب لا أكثر.

نتمنى لكم قراءة ممتعة.

المقدمة

دخل القاضي إلى المجلس بخطوات ثقيلة وقليلة، ثابتة كما هو حال حكمه في جميع القضايا التي نُسِبت إلى اسمه، رفع يده اليمنى ليقطع الأصوات العشوائية والهمسات التي كانت تأتي من الحضور وهيئة المحلفين وأطراف النزاع، ليجلس على الكرسي المُخصص له يتفرَّس بعينيه مجموعة المُتهمين بتريُّث وإمعان.

أمال نظارته وهو يقوم بفتح الملف الماكث بين يديه ويقلِّبُ بين صفحاته، ليقوم بقراءة سريعة لقضية أتت إليه دون سابق إنذار يطلب منه القضاء الوقوف عليها وحلها بأسرع وقت ممكن قبل وصولها إلى الإعلام وتداول الإشاعات والتسبب بمتاعب لا يحمد على وقوعها أحد.

لم تكن تلك القضية من الجرائم، أو حتى قضايا الاختلاس، ربما خطر له كونها قضية سرقة، وفي أسوأ الأحوال قضية مخدرات جماعية، أما أن تكون تلك القضية الادعاء بوجود مدينة لم تعثُر عليها المحافظة، فهذه قضية بسيطة يمكن إنهائها بجلسة واحدة بتقرير الادعاء الكاذب وإزعاج السلطات، ثم أخذ القرار بحق جميع المشاركين في هذه القضية ليتم رفع القضية وإغلاقها بجلسة واحدة.

تلك الأفكار التي كانت تدور في ذهن القاضي عبدالناصر قبل بدء الجلسة ومعرفته عدد الجُناة بهذه القضية وسماعه أقوالهم واحدًا تلو الآخر، ليقرر بعدها إعطاء كل جانٍ جلسة وراء

الأخرى ويتم ضبط الاعترافات واتخاذ القرار الأنسب لتلك القضية الاستثنائية.

زمَّ شفتيه وهو يزدرد ريقه ناظرًا إلى القضاة الجالسين حوله، يحاول إيجاد مخرج لهذا الأمر المُلتبس عليه دون خلق ضجة واضطراب بين الحضور، كان ينظر إلى الرجل الشاب الذي يقف وسط الجناة بثقة تامة وكأنه ينتظر قرار البراءة الذي سيوقع له القاضي عليها ويخرج من المحكمة بعد بضع ساعات ليس إلا.

كان عبدالناصر يستطيع قراءة ملامح الشخص الجاني بثواني معدودة، وذاك الأمر بسبب خبرته الطويلة داخل عالم القضاء والتي تزيد عن أربعة عقود متتالية من الجلسات التي كانت تُكلل بنجاحاته الباهرة، وإقامة العدل ورفع الحق على الباطل دون الاكتراث لهوية الجاني أو المجني عليه أو معرفته بهويته ثقافته ودينه.

كان رجلًا يستطيع قول الحقيقة والحق دون تدخُّلِ أيُّ سلطة في حكمه، في زمنٍ تُقرَعُ فيه الأحكام بيد الأقوى والأكثر نفوذًا.

قرر في النهاية تقريب هذا الشاب إلى المنصة للبدء معه في الإدلاء بشهادته، ورواية قصته مع وضع الدلائل إن وجدت طبعًا.

أمسك بمطرقة المحكمة الخشبية وقام بالطرق على الطاولة أمامه ثلاث مرات قبل أن يخرج صوته الخشن ليسكت القاعة:

- هدوء نحن الآن في قاعة المحكمة، وسأقوم بإخراج أي شخص يحاول التشويش على المحكمة العليا أو هيئة المحلفين.
والآن ليتقدم البروفيسور محمد الجزائري للإدلاء بشهادته.

خرج البروفيسور محمد من أوسط الجناة بالفعل وتقدم ببضع خطوات نحو المكان المخصص، وهو يقوم بتعديل قميصه والوقوف بشكل مستقيم دون النظر إلى أحد أو حتى احناء رأسه نحو الأرض، وكأنه كان ساهم الطرف ينظر إلى الفراغ، أو يحاول إيجاد قصة يحيكُ أحداثها بإتقان ليقنع سيادة القاضي وهيئة المحلفين.

لذلك قرر القاضي اختراق فضاء تفكيره بسرعة ليخرجه من الاستغراق في أفكاره واستجوابه بأسرع وقت.

- عرف باسمك وعمرك وعملك.
- اسمي محمد الجزائري، وأنا من الجزائر، أتممت اليوم الخامس والثلاثين من العمر، أعمل بروفيسور في جامعة تيمقادا قسم البحوث التاريخية.
- احكي لنا السبب في ادعائك بوجود مدينة تاريخية تسمى الدم المقدس، وأين تقع؟ بل ما هو الدليل القاطع على وجودها فعليًا كما تحدثت إلى السلطات المعنية؟!

- سيادة القاضي قصتي أنا والفريق طويلة جدًا، فهل لدى سيادتكم الوقت الكافي لسماعها والتمعُّن بها قبل نطق الحكم؟!

حكَّ القاضي رأسه بحيرة وهو ينظر إلى هيئة المحلفين، هو الذي لم يقوى أحد على سؤاله قبل الآن أو حتى التشكيك بمصداقية حكمه، وقد أزعجه التشكيك بعدل الهيئة القضائية العليا، لكنه قرر التريث قليلًا والصبر، لذلك أسند ظهره إلى الوراء بثقة وهدوء تامين، ثم نظر إلى عدد أعضاء الفريق الجالسين خلف البروفيسور، ثم قال بنبرة يشوبها التحدي:

- نعم لدينا كل الوقت اللازم على أن نستمع إلى أقوالكم جميعًا واحدًا تلو الآخر، بشكل منفصل ولننظر إذا كنا سنستمع إلى نفس القصة أو بالأصح سنكتشف المدينة نفسها!

دوَتْ صوتُ ضحكات خافتة من الحضور بعد كلمة القاضي الأخيرة، أمسك الورقة الأولى من الملف، كان اسم العضو الأول لفتاة سورية وهي التي قامت بكتابة البحث والتحدث عن وجود تلك المدينة، في ذاك الوقت رسمت على ثغره ابتسامة النصر وهو يكمل كلامه بنبره عالية:

- سنقوم بإكمال القضية في الجلسة الثانية الكائنة بالسابع عشر من الشهر الجاري على أن نستمع إلى أقوال الشابة أماليا الدمشقية، والنظر إلى الأدلة الكافية التي بحوزتها، بإمكان المتهمين العودة إلى الحرم الجامعي على أن لا

يقوموا بتغيير مكان سكنهم أو السفر إلى الخارج حتى انقضاء الدعوى الماثلة، رفعت الجلسة.

ابتسم البروفيسور محمد وتراجع بهدوء نحو الخلف ليعود ويقف أمام طلابه من جديد، كان يراقب القاضي وهو يخرج من باب القاعة الرئيسية، تاركًا خلفه مجموعة من الباحثين في التاريخ يقوموا بعملهم كما طُلِبَ منهم قبل أن يُقام بالحكم عليهم ودون سابق إنذار بالإزعاج والادعاءات الكاذبة.

بإمكانك أن تكون واثق بنفسك وخطواتك في الأوقات التي ترى فيها ثمار النجاح تُجنى أمام عينيك، أما أن ترتدي الهدوء وأنت تواجه قضية في بلدٍ تتواجد فيها لعمل مُحدد، فهذا هو الأمر الذي جعل القاضي يندهش من هدوء البروفيسور محمد المُبالغ به كما تصوَّره.

بهذه الكلمات البسيطة والوقت القصير أنهى القاضي عبدالناصر جلسته الأولى مع البروفيسور محمد وفريقه لتقف أمامهم قضية لم تكن بالحسبان أو حتى لم يكن لديهم أي فكرة عن سبب وجودها، هم الذين كانوا يعملون بكل جدٍّ ضمن تصريح قانوني قاموا بأخذه من جامعة القاهرة، ليقوموا بهذا البحث.

الجلسة الثانية

وقفت أماليا ماثلة أمام القاضي تحرصُ على القيام بالتحدث إليه بكلمات واضحة دون التحيز إلى جانب معين، يبدو عليها القلق والتوتر بجسدها المرتجف، ويديها اللتين تحاول اعتناق

نفسها داخلهما، كانت تعتصر كتفيها بقوة وكأنها تآزر وتمسك بخيوط ثباتها، في حين أنها شعرت بنفسها تشبه دمية المسرح التي تُراقص بأصابع اليد بخيطان تمتد إلى أطرافها وتأخذها الأقدار لتمشي خطوات لا تعلم إلى أين ستأخذها.

أعادها إلى الواقع نبرة القاضي الذي تحدث معها بشيء من القسوة وبكلمات صارمة:

- عرفي بنفسك ، عمرك، وعملك في مصر.
- أماليا هو الاسم الذي اخترته لنفسي بعد مغادرتي لدمشق، أما عن الاسم الذي أعطاني إياه والدي فهو شام، وأنا أبلغ من العمر اثنان وعشرون عامًا،

أعمل مدرسة تاريخ في إحدى المدارس الإعدادية، وما زلت أكمل دراستي الجامعية في كلية الآداب بجامعة القاهرة قسم التاريخ....

قاطعها بإشارة من يده وهو ينظر إلى كاتب العدل يقوم بكتابة أقوالها قبل أن يسألها مرة أخرى:

- حسنًا يا أماليا، من الذي قام بتكليفك بهذا البحث وهل يوجد لديك الإذن بالأمر؟!
- تم تكليفي برفقة أصدقائي من الجهات المعنية بالبحث عن المقابر الفرعونية القديمة، وقد أحضرت معي الإذن الرسمي بهذه المهمة، هل تود الاطلاع عليه؟!

أومأ برأسه موافقًا بعد أن سمح لها بالاقتراب قليلًا؛ لتضع أمامه الإذن الورقي لمعاينته بدقة.

تراجعت للخلف قليلًا ثم أردفت قائلة:

- سيادة القاضي! لم أكن أعلم بأن حياتي ستنقلب رأسًا على عقب بعد كتابتي بحثي الأخير الدم المُقدَّس والقصص الأسطورية الأقرب للخيال.

الأحلام التي رسمتها لنفسي كخطوات على أرض الواقع، أعلم جيدًا بأنَّك تعتقد كون المملكة كذبة قمنا باختراعها صدقها العالم بأكمله أننا صدقناها نحن أيضًا، لكنَّها واقع يتجسد لنا كلما نزلنا نحو المقابر الفرعونية لتصبح حقيقة جليَّة أمام أعيننا، برفع الغطاء عن حقيقتها علميًا وتاريخيًا بعد عثورنا على تلك اللوحات الطينية، والرموز المتروكة على الحائط وبين الرُفات منذ ألف عام.

منذ دخولي إلى مصر وأنا عاشقة لقراءة تاريخ أم الدنيا، البلاد التي سقتني بغرامها حتى أصبحت قرينة لغاليتي دمشق فقررت أن أكون طالبة في كلية التاريخ لأغوص في عمق علومها القديمة، انتظرت كثيرًا من أجل أن يتم تكليفي بأحد البحوث التي من خلالها قد أستكشف العديد من الآثار، لكني أبدًا لم أقطع الأمل حتى جاء اليوم الموعود عندما طُلِبَ مني القيام ببحث تاريخي عن الدم المقدس.

لقد عملنا ساعات متواصلة دون كلل أو تعب برفقة الأستاذ محمد، الذي جاء من الجزائر إلى مصر ليساعدنا في القيام بالعمل على أكمل وجه وبدقة متناهية، وقد أعادنا نحو المنطقة الصحيحة والتي يتواجد بها بوابة المملكة والمقابر الملكية

الفرعونية التي بحثنا عنها لمدة سنة كاملة لكن دون فائدة تذكر، وكانت تلك المنطقة هي سوهاج.

بعض الجهود المبذولة لتحقيق الأهداف يتبعها فشل وخيبة كبيرة، لحظات من الألم، من الحزن تملأ أرواحنا، لكن الحقيقة أننا بإمكاننا النجاح إذا ما حوَّلنا تلك الجهود نحو الطريق الصحيح، عوضًا عن العبث في المجهول، والطرقات الخاطئة حتى النهاية.

عادت بها الذاكرة إلى اليوم الثاني من لقائهم مع الباحث وذاك في الرابع عشر من يونيو من السنة الماضية، استيقظ الجميع باكرًا، للتحدث قليلًا عن الأحداث التي حصلت في الأمس، وهي ما جعلت عمل الفريق يذهب إلى الجحيم كما قال الباحث المتعجرف.

أعددتُ فنجان من القهوة لكل واحد منا، واضعة طبقاً من البسكويت المغطس بالشوكولا.

كنت أول المتحدثين في هذا الصباح الباكر:

- إذًا ما الذي يتوجب علينا فعله الآن، لقد أظهرنا أمامه وكأننا مجموعة من الحمقى لا نفقه شيئًا.

كانت أسماء تقضم بقية القطعة التي بين أصابعها وهي تفكر في جميع الأحداث تباعًا وما الذي يتوجب عليهم فعله قبل أن تجيب أماليا:

- لو كنت مكانك مش حتكلم قبل ما أروَّح وأشوف الاجتماع، بالنسبة لي فكرت في الكلام إمبارح ولقيت إنه منطقي جدًا.
- لم أشعر أنه كان وديًّا كما قيل لنا في الكلية، أشعر به شخص متعجرف بكل الأحوال. أردفت أماليا بشيء من الخيبة...

شارك آدم أسماء رأيها بعدم إطلاق الأحكام قبل حلول الاجتماع، أما جورج فقد كان مستمع للقصة لعدم تواجده داخلها.

كان الأستاذ والباحث التاريخي قد أضاف الفريق إلى مجموعة للتحدث عن البحث المقرر ومناقشته ضمن مواعيد قد حددها مسبقًا، وقد أبلغ برسالة قصيرة عند منتصف الليل، عن اللقاء الأول الذي سيجمعهم أمام القبر الخاص بالملك والملكة للتحدث قليلًا، وللقيام بجولة قصيرة نحو الداخل.

كان آدم أكثرنا تحمسًا وإثارة لهذه الرحلة، وهو من سيقودنا نحو مدينة سوهاج التي لم يرها الجميع من قبل!

ترجَّل الجميع من السيارة ليواصلوا المسير على الأقدام متبعين آدم بصمت مطبق.

لا أعلم عن تلك المناطق شيئًا إلا أنني لا أود التواجد داخلها بالتأكيد، وقد شعرت بالارتياح فور رؤيتي للباحث التاريخي يقف على إحدى الصخور القديمة.

كانت دهشتي أكبر عندما وجدته يقف على بوابة عبور إلى مدفن قديم لا صخرة كبيرة وحسب!

توقفنا أمامه ونحن ننظر إلى بعضنا البعض لنجد الإجابة المناسبة قبل أن يقاطع جميع تأملاتنا بصوته الأجش والحاد:

- السلام عليكم يا أصدقاء!

أنا الباحث التاريخي الذي سيقودكم في هذا البحث، واسمي هو محمد، أعلم جيدًا دهشتكم الكبيرة في القدوم إلى مكان مثل هذا المكان، لكنها الحقيقة يا أصدقاء، فنحن سنبدأ من هنا للعثور على مكان القبر أولًا.

أشار إلى الصخرة وهو يقول بصوت مرتفع وباللغة العربية الفصحى:

تعلو هذا المنحدر الصخري بوابة للقبر أو المملكة المفقودة أو كليهما معًا، وهي في الغالب من عصر الدولة القديمة على بعد 20 مترًا من الناحية الشرقية ومن مدخل المقبرة يقع مصب الوادي والذي له فتحة واسعة تتجه إلى الصحراء، وتعرف الجبانة القديمة المجاورة بنجع المشايخ بجبانة نجع الدير وبعضها ما يزال مفتوحًا للآن، وهناك مقبرة حاتى نموًا، وهناك مقبرتين من عصر الرعامسة وعلى بعد عدة كيلو مترات جنوب نجع المشايخ يوجد بقايا لمعبد رمسيس الثاني رممه ابنه سرنبتاح.

معبد رمسيس الثاني -معبد ابيدوس-: هو أهم الآثار الفرعونية في سوهاج والمعابد الجنائزية الاثرية لحضارة مصر القديمة،

في سوهاج مصر تاريخ وأسرار بناء المعبد الفرعوني ووصف كامل للمعبد من الداخل والتماثيل والرسومات التي يحتويها.

رغم أن هذا المعبد العظيم قد تهدم كثيرًا للأسف، فهو يستحق زيارة خاصة، وفي هذه الحالة يمكن الوصول إليه بسهولة من الطريق الذي يخترق الزراعة الواصل من تمثالا ممنون ومرسى البر الغربي للنيل، ولو أنه يمكن للذين زاروا مقابر الدير البحري أن يزوروا هذا المعبد بسهولة؛ بأن يجتازوا الطريق المار بهضبة مقابر الشيخ عبد القرنه.

ويقع معبد رمسيس إلى الشمال من معبد والدة سيتى الأول، وهو أقل من معبد سيتى الأول، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه يعتبر من أهم المعابد الجنائزية، وقد شيد هذا المعبد في أوائل حكم رمسيس الثاني، فعلى الرغم من تهدم أجزاء كثيرة منه وكذلك الخلل الذي في صرحة الأول والفناء الأمامي، فإنه لا يزال يتميز بتماثيله وأعمدته الضخمة.

ومن المعروف أن به أكبر تمثال نحته الفنانون في مصر على وجه الإطلاق، ولكنه للأسف تهشم نتيجة لأحد الزلازل في العصور القديمة.

ويحيط بحرم هذا المعبد سور من الطوب اللبن يضم مساحة تشغل جانبًا كبيرًا منها مباني ثانوية ومخازن.

والجدران بنيت من الحجر الجيري والأعمدة من الحجر الرملي وأعتاب الأبواب من الجرانيت الأحمر والأسود

والرمادي والمحراب من المرمر ونقوش المعبد دقيقة للغاية وقليلة البروز ذات ألوان زاهية.

ومن أشهر معالم نقوش جدران المعبد مناظر تمثل معركة قادش التي كانت مبين المصريين والحيثيين، وانتصر فيها رمسيس الثاني عليهم.

وعلى البرج البحري عندما ننظر إلى الشرق نجد إلى اليسار قائمة تحوى أسماء ثماني عشرة مدينة احتلها رمسيس في تالية، ومنظرًا للأسرى وهم يساقون إلى الأسر وعلى الجنوبي مناظر الحملة التي شنها ضد الحيثيين.

الفناء الأول في حالة تهدم تام، وقد كان به صفان من الأعمدة في الجانب الجنوبي وتبدو أنها كانت متصلة بأنقاض قصر إلى الجنوب، وتخترق هذا الفناء إلى الجهة الغربية لنجد قبالتنا بقايا أضخم تمثال من التماثيل المصرية، أما الفناء الثاني الذي ندخل إليه الآن أحسن حالًا من الأول، وأن كان هو الآخر مهدمًا، فعلى الجانبيين الشمالي والجنوبي كان يوجد صفان من الأعمدة المستديرة، وفي الشرق صف من الأعمدة المربعة عليها تماثيل أوزورية، وفي الغرب شرفة مرتفعة عليها صف من الأعمدة الأوزورية المربعة تواجه الفناء، ووراءها صف من الأعمدة ذات تيجان على شكل برعم البردي، والتماثيل الأوزورية التي لم يبق منها الآن سوى أربعة في كل صف تماثل رمسيس الثاني.

بقايا المعبد تدل على أن تصميمه المعماري بأنه لا يختلف عن تصميم المعبد المصري التقليدي والذي يشتمل على فناء

مكشوف أو اثنين ثم الشرفة وأخيرًا بهو الأعمدة والمقاصير وقد نقشت على جدرانه رسوم المظاهر للتعبد وإله النيل والأرض المزروعة التي مثلت بامرأة.

تنهَّد قليلًا قبل أن يكمل: حسنًا هذه الحقائق التاريخية التي سردتها لكم اليوم ما هي إلا دلائل على مدينة مفقودة لكن أسفل هذه الصخرة التي أقف عليها!

والتي عبرت أماليا عنها بكونها وحَّدَتْ ثلاثة حضارات من مختلف الثقافات والجنسيات والأديان معًا.

نظر إلى قدميه قليلًا بإمعان قبل أن يقفز نحو الأسفل وهو يوجه حديثه إلى الشابان معنا في الفريق.

- سنقوم بالعمل على إزاحة هذه الصخرة قبل غروب الشمس لنستطيع النزول إلى الأسفل نحو المدينة المفقودة.

تقدَّم جورجيو قليلًا حتى أصبح قريبًا من الأستاذ ثم قال بنبرة متوترة: وماذا لو لم تكن موجودة في هذا المكان؟!

تركه الأستاذ وهو يقترب نحو الصخرة ثم أشار إلى رموز حفرت باللغة الهيروغليفية ثم قال بحماس: متأكد من هذا الأمر، أما لو أردت الانسحاب من الفريق لك ذلك.

نظر الأخير للخلف بصمت وشيء من الغضب لبضع دقائق، قبل أن يخطو نحوه وهو يجيبه: حسنًا سنفعل ما تريد، لكنك ستتحمل المسؤولية الكاملة.

اقترب منهما آدم و بدأ الرجال الثلاثة بالدفع نحو الأمام، لترتفع الصخرة بكل سهولة ويظهر درج مخفي قديم يتجه نحو الأسفل.

كان الجميع في ذهول ونحن نشاهد الفوهة المُظلمة، لم يكن من المتوقع كشف الأمر بهذه السهولة الكبيرة.

كان آدم أول من قفز نحو الدرج بخطوة واحدة وهو يقول: فليدخل الرجال أولًا؛ ليكتشفوا المكان ثم فلتدخل الفتيات.

كانت جملته الأخيرة قد أثارت غضبي فركضت نحوهم مسرعة؛ لأوقفهم قبل أن يقوموا بالدخول معه.

- لن تتركونا هنا لوحدنا، عدا عن كوننا باحثات في التاريخ ولسنا بالسائحتين الأجانب، سندخل معكم و نرى ما سيحدث، هل توافقين الرأي يا أسماء؟!

نظرت إلى أسماء برجاء وأمل أن تجيب بالإيجاب، وقد اشتد بي الفضول للذهاب معهم على المكوث في الخارج.

أما الأستاذ محمد يستمع إلى الحوار الذي دارَ بيننا بصمت، قبل أن يحسم الأمر بشكل نهائي برأيه:

- حسنًا سندخل معًا، لكن لا تبتعدوا عني، ولا تقوموا بلمس الأشياء الغريبة، أو ذات الروائح النفَّاذة حتى العطرية كانت أو الكريهة، ولتنصتوا إلى ما أمليه لكم دون فعل أشياء بطولية، خصوصًا أنتِ قالها وهو يشير بأصابع الاتهام بالتهور إلي.

وافقناه جميعًا على رأيه، لندخل واحدًا تِلو الآخر نحو الدرج بخطوات بطيئة ومتقاربة.

دخل الأستاذ محمد في البداية وتبعه آدم وجورجيو كما طُلِب منا، ثم تبعناهم أنا وأسماء.

بدأ الدرج يضيق إلى أن وصلنا إلى ممر طويل ذو سقف منخفض، مما جعلنا نجلسُ على أركبنا ونزحفُ لنصل إلى نهايته وقد أخذ منا ذاك المكان ساعات طويلة، في تلك الليلة مكثنا في آخر الممر، نحاول البحث عن قبر ملكة وملك دُفنا على مرِّ التاريخ دون ذكر الكثير عنهما؛ وهذا ما أثار حماسنا.

كان العرق يتصبَّبُ من أجسادنا المنطوية في تلك المساحة الضيقة، والهواء القليل جعل تنفس الجميع صعبًا للغاية.

أردفت لي همسًا زميلتي أسماء بلكنتها المصرية وروح تملأها الدعابة: هو إحنا هنفضل معكوكين هِنا لحدِّ أمتى؟ يا بنت! أنت يا أماليا! لو أنت رُفيعَة غيرك ما يستحملش خلصينا أحسن ما نلحق الملك بتاعك ده.

ضحك بصوت مكتوم زميلنا اللبناني جورجيو وهو يستمع إلى المحادثات التي تحدث بيننا، لكنه كما المعتاد كان ينظر إلينا من بعيد دون الدخول في أي نقاش عدا عن النقاش في تاريخ اللغات في العصور القديمة، كما هو شأنه.

وفي اللحظة التي شعرنا بها أن الموت سيقترب منا حتى إننا لم نعد نفكر سوى بالعودة إلى الوراء، أعطى الأستاذ لنا

الإشارة بالتقدُّم، لكن الذي حصل كان مفاجئ للجميع؛ حيث إننا وقعنا في الفراغ لنرتطم بقوة في الأرض.

فتحتُ عيني ببطء شديد وأنا أشعر بطنين قويّ في أذني اليسرى، يداي غارقتان بالطين والرطوبة اللزجة، رائحة دم نتنة وظلام ينتهي بنور ليس بعيد.

أهكذا يبدو العالم الآخر من هذا الكون، لم يكن مُخيفًا أو أكثر ظُلمة، رُبما لأننا اعتدنا رؤية الظلام في قلوبنا.

نظرت من حولي لأبحث عن أصدقائي الأربعة أو حتى الأستاذ الجزائري، فدهشني كمية العظام والرُفاة في زوايا المكان وفوق الجدران، وقد كنت أرى آثارًا مختلفة لعشب قديم ولغات قديمة الممزوجة ببعض الرسوم التي تحكي قصّة هذا المكان، وقد جذبتني جميعها لشدّة غرابتها، فبدأت الاقتراب منها وأنا أمعن النظر بهدوء وتؤدة في اللحظة التي أمسكني بها الأستاذ محمد من كتفي وأعادني للوراء، وهو يقول بلهجتي الجزائرية بحنق وغضب: واش بيك ما كان له داعي درت باش يا أبا أنت مستغنية عن روحك، ماليش شايفتينا طايحين مكان ما نعرفها طريقة، خلِّيك معايا لحد ما نوصل البقية بعدها نتحرك سوا.

كنت أنظر إليه بعينين مرتبكتين وهو يشرح لي بغضب عن خطورة فعلتي، وعلى الرّغم من عدم فهمي لكامل حديثه إلا أنني تعلمت ألا أفعل أي شيء قبل سؤاله عن الأمر، وإلا أدى بنا الأمر إلى الموت المحتم.

وفي هذه الأثناء استيقظ الجميع، ولقد قام النداء لهم الأستاذ محمد ليقفوا معنا، وعلى الرغم من عدم معرفتنا بحجم المكان، إلا أننا على الأقل استطعنا الوقوف باعتدال وكأنها قاعة ملكية.

شعرت بثقل الصمت الذي جعل الجميع يدور في أنحاء المكان إلا أنني بدأت أشعر بالتوتر بسبب الظلام الذي كنت أكرهه بشدة، فلم أعد أطيق الصبر في الوقوف، وفرائصي بدأت ترتعد بشدة من الخوف، وكأن هناك شيئًا ما يراقبنا بعيون مخيفة، فجرحت الصمت بصوت عالي وخائف يملأه الرحلة:

- ما رأيكم أن نذهب إلى مكان الضوء؟!

نظر إليَّ الجميع وكأنهم شعروا بوجودي في تلك اللحظة، وقد ثُبِّتت أعينهم إليّ وكأن شيئًا ما يحدث، فشعرت بالخوف أكثر، اقترب قليلا آدم وهو يشير إليّ بملامح باهتة ومريبة بالنظر إلى الوراء.

لم أكن أملك الشجاعة بالنظر إلى الخلف، أحنيت رأسي إلى الأسفل فشاهدت ظلًّا ضخمًا يقف ورائي، فشعرت ببرودة تجري في عروقي وارتعد جسدي الهشّ بقوة، لقد كان ظلَّ الملك يحمل فأسًا وهو يرتدي عباءة سوداء يغطي بها جسده، لكنَّه أظهر قلادته الفرعونية، كان يضحك بجنون العظمة وهو يشدُّ على الفأس محاولًا ضربي بها، أما أنا أغمضت عيني بقوة وأنا أحاول الصراخ أحسست وكأنني ابتلعت صوتي، واختفى في تلك اللحظة ولم أعد أستطيع الركض أو حتى الحراك.

اقترب مني بسرعة كبيرة ووقف أمامي وصرخ بملء فمه بوجهي، فشعرت بنفسي أهوي إلى مكان بعيد.

فتحت عيني مرّة أخرى لأجد نفسي في غرفة الطوارئ داخل أحد المستشفيات، وأنا أسمع صوت مصري يصرخ بفرح: صحيت المريضة يا فندم!

وأصوات متداخلة بلهجات عديدة تقف فوق رأسي، أعلم جيدًا أنهم زملائي الذين كانوا معي، لكن ألم نكن بعيدين كل البعد عن الجيزة؟!

وكأن أسماء كانت تسمع تساؤلاتي فقالت لي مطمئنة: ما تخافيش يا حبيبتي، بس بسبب ضغط المكان أغمى عليكِ علشان كده أجَّل الأستاذ محمد الرحلة لبعد شهر.

- شهر، يا إلهي هل سننتظر شهر آخر لا أعتقد بأنها فكرة جيّدة، ما الذي سوف نفعله بكل هذه المدة؟!

دخل الأستاذ محمد وقد سمع كل ما قالته، فقال لها بحزم ولهجة صارمة:

- إن رأيتِ أن المدة طويلة وتفضلين عدم التأجيل، هذا يعني عدم دخولك معنا ضمن تصنيف الرحلة بسبب حالتك الصحية التي لا تسمح لك بذلك، شنو رأيك توّا نأجل ولا نبقى على نفس التوقيت؟!

صمتت أماليا وهي تدير رأسها بشيء من الحزن والإذعان؛ فهي لم ترد أن تخسر مثل هذه الفرصة، وقد علم الأستاذ موافقتها، ليخرج من الغرفة ويتابع إجراءات خروجها لتستريح

في منزلها، فالرحلة ما زالت طويلة حتى يصلوا إلى القاهرة والجميع أنهكه التعب والإرهاق.

قاطعها القاضي عبدالناصر بإشارة من يده، بعد طلب من المحامي للتدخل بسؤال يوجهه إليها:

- هل لديك الإثبات الكافي عن وجود هذه المدينة، أو إعطاء المتخصصين الموقع والذهاب برفقة المحكمة ورؤيتها عن قرب؟!
- لا، لا يوجد أي دليل سوى كاميرا محترقة وملفات كتبناها بخط أيدينا، وأعيننا التي شاهدنا بها المملكة.

رفعت يدها أمام وجهها وأردفت مُكملة: وحفنة تراب صغيرة لا تنتمي لمكان.

أغمض القاضي عينيه لبضع دقائق قبل أن يسحب نفس عميق نحو صدره ليملأه بالهواء الساخن قبل أن ينهي الجلسة:

- المحكمة لا تؤمن بالقصص أو الاعتقادات الشخصية، بل في الأدلة والبراهين، التي لا أحد من المجموعة يمتلكها، وعليه سيتم تثبيت أقوالك، وإنهاء الجلسة على أن يتم الاستماع إلى أقوال البقية في الجلسة الثالثة في اليوم الأول من شهر أيار، رُفعت الجلسة.

خرجت أماليا من المحكمة لتجد البروفيسور محمد ينتظرها برفقة أصدقائها الثلاث.

أعاد ماجد إلى الواقع صوت القطار يُعلن وصوله نحو المحطة الثانية، ليضع الكتاب على عجلٍ داخل الحقيبة، ويمسك

بأغراضه خارجًا نحو مقاعد الإنتظار ويجلس على المقعد منتظرً وصول رحلة القطار التي سوف تصلُ به نحو المدينة.

تنهَّد بتعبٍ وهو يضع أمامه الأغراض ويردد بصوت منخفض: الحمد لله هذه المحطة ما قبل الأخيرة وبعدها نصل.

كان يتأمَّلُ أشجار البلوط المزروعة بانتظام لتفصلَ بين مقاعد الإنتظار، وكأن المحطة لم يتم تحديثها منذ أمد بعيد، أو أنهم اختاروا تركها كما هي ذكرى من الماضي.

جلست أمامه فتاة ترتدي قفطانًا أبيض اللون وحجابًا ساترًا، وجهها المُستدير والخالي من مساحيق التجميل يُعبِّرُ عن طبيعتها البسيطة، تحمل على كتفها حقيبة متوسطة الحجم، تعلو ملامحها ابتسامة عفوية، تومئ بالتحية لكل من يقابلها.

لم تنظر إلى عينيه أو حتى تلقي عليه التحية كما فعلت مع الجميع، كاد يعتقد كونها صماء لا تفقه شيئًا، أو أنَّه غير مرئي بالنسبة إليها، حتى مزَّقت ثوب الصمت الذي أرخى أطرافه بينهما بكلمات أعتبرها عشوائية:

- أأنت مسافر قديم في هذا العالم؟!

رفع إحدى حاجبيه بتوجس وقد رسمت على شفتيه ابتسامة تهكُّم أيوجد مسافر قديم وآخر حديث الطراز؟!

قالها وهو ينظر إليها بتحدي، قبل أن يدير وجهه نحو الجانب الآخر من المحطة.

كانت تتحدث إليه وهي تنظر إلى شجرة السنديان المقابلة لها، لم تتغير ملامح وجهها أو يرتفع صوتها، بل أجابته

ببرود وثقة مشيرة إلى الكتاب الظاهر غلافه في الحقيبة الجلدية الموضوعة بينهما:

- كنت أقصد عالم الكتب يا صديقي، هل أنت قارئ شغوف أم أنها مُجرد هواية أدخلتها حياتك لكونها موضة هذه الأيام؟!
- وهل القراءة أصبحت إحدى صيحات الموضة حاليًا؟!

هذه المرة التفت نحوها وهو يقف بغضب حاملًا أغراضه ليجلس في مكان بعيد عن ملكة الثلج التي تدير الحديث بينهما كما أعتقد بعشوائية.

- عذرًا سيدتي أنا لن أدخل في نقاش عشوائي، سأجلس في مكان بعيد عنك.

ضحكت بسخرية وهي تنظر إلى ساعة الحائط الموضوعة على مقربة من مكتب التذاكر وهي تجيبه بفتور:

- لا أعتقد أنك سترحب بفكرة التأخر عن الوصول قرابة العشرة ساعات، دقائق وسيصل القطار التالي.
- ومن قال لكِ أنني أنتظر الرحلة القادمة للسفر، ولربما أنتظر قدوم شخصًا ما على متنه؟!
- أأنت جاد بما تقوله؟ لقد سافرت قرابة الثلاث محطات وهذه ما قبل الأخيرة، اجلس وانتظر بهدوء.
- من أنتِ يا هذه؟!
- أنا مريم كاتبة رواية رُفِعَت الجلسة.

نزلت كلماتها الأخيرة عليه كالصاعقة، اقترب منها وهو يتفرَّسُ ملامح وجهها وقسماته، بعد أن رفعت الإسدال

عنه فعلً هي مريم كما في الصورة المنشورة داخل المقال تمامًا.

ابتلع ريقه وهو يحاول ترتيب أفكاره، تذكر صديقه محمد الصحفي الذي لم يكن يستطع ترتيب أي موعد صحفي برفقة أي كاتب طيلة هذه السنة، وهو يحاول ويبحث عن نقطة يبدأ عمله منها، أراد أن تكون تلك البداية مع إحدى الكُتَّاب المشهورين، لكن لا بأس فهو الآن في عطلة والبعض من الإنجازات الصغيرة ستفي بالغرض وترفع من تجاربه، بل كان من الأفضل له التحدث مع شخص ما كصديق طوال هذه الرحلة المُتعبة على تخيُّلِ بومة خيالية أو الانغماس في تأمل المارة والمسافرين من حوله.

استطاع إحصاء عدد الغيوم التي رآها من خلال النافذة، وأنواع الشجر المثمر على حافة الطرقات، وقد أنهى قراءة خمس كتب وثلاث روايات قام بتأجيل قراءتهم مدة طويلة من الزمن.

لم يستطع النطق وكأنه ابتلع لسانه فجأة، حتى أنه أدخل يده تَحسُّسًا خشب المقعد واضعًا يده الأخرى وراء رقبته يمسح العرق المُتفصِّد إثْرَ ارتباكه.

جلس على المقعد وهو يحيط خصره بذراعيه يلفهما حوله كمحاولة للظهور بأعلى معايير الهدوء والثقة اللازمين للبدء بالحديث.

لكن النداء الصادر عن المكبرات الصوتية للذهاب نحو القطار والتوجه إلى المقاعد للبدء في الرحلة الجديدة

حالت بينه وبينها، لذلك قرر توديعها بإشارة من يده حاملًا أغراضه، واصل المشي نحو الرصيف يقف بين الجموع الغفيرة ينتظر الضابط الذي يقوم برؤية التأشيرات ويساعد الناس في العثور على أماكنهم الصحيحة ووجهتهم المحددة بأقل وقت ودقة أكبر.

كان الرجل بمنتصف الخمسين أصلع الرأس يحمل ملامح طيبة بوجه مستدير وشاربين كثيفين يغطيان فمه، يتحدث باللكنة الإنجليزية بطلاقة ويشير إلى غير الناطقين بها بلغة الإشارة إلى أماكنهم المخصصة داخل البطاقات، ليدخل من أول بوابة نحو المقعد المخصص له.

الجو الحار جعل جسده يتفصَّدُ بالعرق وكأن صدره امتلأ بالهواء الساخن فما عاد يستطيع التنفس بشكل طبيعي، لم يعتقد بأن مهمة الجلوس على المقعد ستكون صعبة إلى هذا الحد!

الإنتظار من أكثر الأشياء صعوبة، والتي يحاول الإنسان إتقانها، يقضمُ أظافر روحه بتوتر، وينهش عقله مشاعره الممزوجة بين القلق والتوتر تجعله يرى الوقت يمرُّ بثقل وصعوبة.

حتى أنه تنفس الصعداء بعد جلوسه أمام النافذة وهو يرتب الأغراض أمامه، ليرخي ظهره ويستند مستريحًا بعد عناء نصف ساعة داخل الزحام.

أغلق عينيه مستعينًا بسماعات وضعها داخل أذنيه تنبعثُ موسيقى هادئة؛ ليستعيد هدوءه، ما إن فتح عينيه حتى وجد الكاتبة تنظر إليه ببلاهة وعلى وجهها ابتسامة

ساذجة، تجلس مقابلًا له، تضع قدمها فوق الأخرى، وتسند ظهرها إلى المقعد تجلس بشكل مريح.

قطب حاجبيه باستغراب ردد في نفسه: أعتقد أنها صدفة لا أكثر، أما ما الذي يدعوها لملاحقتي والركوب داخل نفس القطار؟!

أطال النظر حوله ليجد بأن الجميع أخذوا أماكنهم المخصصة والقطار يعلن عن بدء الرحلة بعد ثلاث دقائق من إغلاق الأبواب، حتى تأكد المشرفين من جلوس المسافرين على المقاعد وترتيب الأغراض بشكل صحيح ومنتظم؛ لعدم حصول أي فوضى أو مشكلة مع أحد.

لم يكن الجميع يحمل الجنسية نفسها، وقد وجد اختلافات بين العروق والجنسية والديانات، ترى الوجوه بمختلف الملامح والألوان، اللغات الأجنبية الممزوجة واللكنات التي تعطي موسيقى تاريخية عن شعوب العالم، تظهر رائحتها المميزة التي تجمعهم دون تميز ألا وهي رائحة المطر.

اخترقت فضاء تفكيره بصوتها الأنثوي الذي خرج من المنفى لينظر إليها بتركيز، كانت تتحدث معه وهي تنظر داخل عينيه بثقة وكلمات قليلة:

- لم تخبرني عن رأيك بالرواية -رفعت الجلسة- وهل انتهيت منها؟!
- لا أزال في الفصل الثاني منها.

قال لها مجيبًا بسرعة و دون تفكير، بعد أن قام بالنظر إلى الحقيبة التي وضع بها الرواية، زامًّا شفتيه كمن

اكتشف لاحقًا أكله الحامض بكثرة ليزدرد ريقه بصعوبة، وهو يستطرد الحديث في نفسه: ثم أنني أعتقد عدم رغبتي في إكمال قراءتها في الوقت الحالي.

أردفت حديثها وهي تنظر إليه متحدية مشيرة بيدها نحو الحقيبة قائلة:

- ما رأيك أن تتابع القراءة لكن بصوت مسموع، ثم لنقم بتحليل الأحداث ودراستها معًا، وبهذا نُبدد الساعات الستة التي تفصل عن وصولنا نحو المحطة؟؟
- حسنًا سأفعل ذلك قال لها وابتسامة مكر تقف أسفل ثغره، قبل أن يردف قائلًا: لكن أخبريني أولًا كيف عرفتي بوجود تلك الرواية بحوزتي؟
- كنت أجلس إلى جانبك منذ بداية الرحلة والصدفة الأغرب هو وجودنا على متن الرحلة نفسها، وأنا أعتقد أننا نمتلك نفس الوجهة، فلا بأس من امتلاك أحدنا صحبة طريق على أن يقضي ساعات غير معدودة يعدُّ الغيوم أو يحصي أوراق الشجر.

لم ينظر إليها أو يبدي ردة فعل إيجابية كانت أم سلبية بل اكتفى بالموافقة على رأيها عن طريق إخراجه للكتاب والفتح على الفصل الثاني من الرواية وهو يقرأ بصوت عالي دون إحالة النظر إليها.

- لكن قبل قراءة الرواية، كنت أود القول بأنَّك امرأة قوية فعلًا، هل تعتقدين بأن الرواية تلك ناجحة، للاطمئنان إلى هذا الحد؟! سألها ماجد وهو يقلب الكتاب بين يديه.

- حسنًا، الاطمئنان لا يعني اكتمال جوانب حياتك ونجاحك في كُلِّ مضمار تخوضه في هذه الحياة، بل الراحة التي تنبعث داخل قلبك بمعرفتك حجم مجهوداتك التي قدمتها، وإن فشلت في تحقيق الهدف من ذلك الاختبار، تعلم جيدًا بأنَّه لا يتوجب عليك دومًا الفوز به، بل أخذ الفائدة من تلك التجربة، وأنا أعلم أنني أخذت التجربة من روايتي بشكل أو بآخر. ردت عليه مريم بثقة وهدوء وهي تشير إليه بالبدء في القراءة.

المحطة الثالثة: " لقاء مع كاتب"

الفصل الثاني من رواية: رفعت الجلسة

الجلسة الثالثة:

كان ينظر إلى البروفيسور محمد ويناظره بدقة قبل أن يسأله:

- إذًا يا أستاذ محمد، اخبرني عن قصتك مع هذا البحث منذ البداية.

محمد:

انتهى وقت المحاضرة المخصص لهذا اليوم وبدأ الطلبة والطالبات بالانصراف على مهل ككل صفوف الكليات، أما أنا فبدأت توضيب أغراضي المبعثرة على المكتب وإعادة الأوراق والبحوث إلى الحقيبة من أجل قراءتها ومراجعتها في منزلي، وبينما أنا منغمس في كل هذا حتى سمعت صوتًا عند رأسي جعلني أهتز من مكاني، ارتبكت قليلًا

ورفعت رأسي فإذا به عميد الكلية، أعتذر مني على مفاجأته لي حينما رأى ارتباكي ثم قال لي بكل حزم:

- لقد تم توكيلك برحلة إلى مصر؛ لقيادة مجموعة من الطلاب في بحث علمي وتاريخي.

وهذه المرة ستقوم بها بالشكل العملي، وهي تجربة جديدة بالنسبة لك، و يتضمن البحث حضارات العالم القديم، لكن ستكون الرحلة رفقة طلبة ستراهم للمرة الأولى من مختلف الجنسيات.

كنت أود القول بأنني لن أقبل بمثل هذه المهمة فأنا لست مستعدا أبدًا لرحلة خارج ولايتي، فما بالك بالسفر إلى مص، والعمل رفقة أناس لا أعرف أسماءهم حتى!

نظر إلي بتحدٍّ وشيءٍ من الغموض، وقد رُسِمَت على شفتيه ابتسامة خبيثة تشي بالمكر وهو يحاول جعل كلماته مستفزة:

- لكنه البحث الذي لطالما انتظرته!

حرص على أن تخرج كل كلمة من كلماته بوضوح، وهو يحاول كتم غضبه الشديد عني، يكزُّ على أسنانه، يشبك يديه ببعضهما.

أمسكت حقيبتي وأنا أنظر إليه بهدوء مصطنع لأغادر المكان، ثم قلت له بصوت مسموع:

- لا أعتقد أنني مستعد لهذه الرحلة، وانصرفت.

ركبت الباص عائدًا إلى مدينتي تيمقاد، الشمس قد بدأت بالغروب لتعلن نهاية اليوم، لم يكن منزلي فخمًا أو حتى منظمًا، لكني لطالما أحببت العيش داخله؛

فهو يحمل حضارات العالم أجمع ببنائه البسيط المنقوش بزخرفات من العصر اليوناني تشده بعض من الأعمدة الإغريقية، وفي كل حائط رُسِمت الكثير من الأحرف باللغة الهيروغليفية.

لو رأيته لاعتقدت بأنني أعيش داخل إحدى المتاحف الوطنية!

وهو من بين الأشياء المتبقية لي من عائلتي التي غادرت الجزائر إلى فرنسا قبل سنة من الآن، ولهذا فأنا أعتبره أرث نفيس لا يقدر بثمن.

ما زلت أذكر محاولات أشقائي المتكررة إقناعي بالرحيل معهم، وبأنَّ الجزائر لن تضيف إلى حياتي سوى الحزن والتعاسة، فالأوضاع ما زالت تتدهور والغلاء الفاحش يضرب الناس بالجوع، والفقر ملأ أحشاءهم عوضًا عن الغذاء المنتظر.

وصلت إلى المنزل بعد أن قمت بشراء البعض من الخضروات لطهوها على العشاء، وقارورة من النبيذ الأحمر صنعت منذ عام ١٩٩٣ميلادي قال لي صاحب الحانة ليثير إعجابي بها أن النبيذ هذا يتميَّز بطعمه اللاذع والحار مِمَّا يجعله مثيرًا لاهتمام العملاء لديه إلا أنه فضَّل أن يعطيها لي بسبب معرفتي في التاريخ فأنا أرى ما لا يراه أولئك الثمالة الحمقى الذين لا يفقهون شيئًا عن المشروب إلا أنه يأخذهم إلى عوالم موازية، فإما أن يرفعهم إلى الجنة أو يضرب بهم إلى الجحيم لا فرق لديهم بين هذا وذاك، وكل همهم مغادرة الواقع المعاش بجبن وأنانية للهروب من المسؤولية الملقاة على عاتقهم وأضاف: هذا نبيذ من التاريخ يستحقه فقط الرجال الأقوياء الذين عاشوا التاريخ وقد يصنعونه مثلك، أما هؤلاء لم يصنعوا حتى حاضرًا مشرفًا ولهذا لا أعتبرهم رجالًا أبدًا.

لم يكن باب منزلي موصدًا ولست بحاجة أصلا إلى قفل فأنا لا أملك إلا القليل من الملابس، وشجرة ليمون حامض وبعض من أواني الطعام الحديدية إلى جانب فرن عتيق وفراش صوفي آوي إليه كلما غلبني التعب والنعاس فمن هذا الذي قد يفكر في سرقة بيت يسكنه شخص مثلي؟!

أما الكتب والحاجيات الخاصة بي فهي من الأشياء الثمينة لدي ولا يمكن أن يقدر قيمتها أحد غيري، فما بالك بسارق لا يفقه شيئًا، ولا يلتفت غالبًا إلا لما يجلب له مالًا قد يغنيه أو ينفعه على الأقل؛ ليبقى على قيد الحياة مدة أطول، ولهذا فأنا مطمئن دائما ولا أخشى مثل هذه الأحداث.

لو أنَّه قيل لي قبل سنة من الآن أنها حياة أستاذ في إحدى الكليات المعنية بالتاريخ لضحكت في ذهول عن جنون العظمة الذي يعيش داخله أما بعد أن أصبحت حياتي فلم يعد الأمر بالشيء المهم!

أمسكت الملفات الموضوعة في الحقيبة، وأنا أرتبها على مهل أمامي فوق الأرض لأتفاجأ بوجود مصنف باللون الأزرق كُتِبَ عليه (الدم المقدس)، علمت في حينها بأنها إحدى حيل العميد الموقر لمحاولته إقناعي بالذهاب والقيام بالمهمة لكنني لن أفعل ما يشاء وما يحلو له.

قذفت المصنف بقسوة وأنا ألعن الخبث والمكر المتواجدان داخل هذا الإنسان؛ ليقع وينفجرعنه المئات من الصور لمختلف مدن التاريخ ومنها صور لمدينة تيمقاد، أُرِّخ أسفلها أرقام بعشوائية.

نهضت من المكان وأنا أحاول ترتيب الفوضى الناجمة عن هذا الملف الرقيق.
كان يحوي مئات الصور ومرفق بورقة واحدة كُتب عليها بضع أسطر بخط العريض!

الدم المُقدَّس
مملكة الدم المقدس التي أُنشِئت في عام (150ميلادي) على يد الملك هيوماين وزوجته تيامين تلك التي قامت بتوطيد السلام بين الحضارات العريقة في مختلف بقاع الأرض بدءًا من بلاد الشام حتى المغرب وصولًا إلى مصر.
كانت آنذاك مملكة ولَّادة للحضارات حتى عاث فيها الفساد، وجرفها غضب الله على الشعب داخلها إلى قاع الأرض.
قرأت الكلمات بسرعة لعدة مرات متتالية هل هذه قصة خيالية أم مزحة؟!
كتبت هذا التقرير إحدى الطالبات داخل الفريق واسمها أماليا.
استلقيت على الفراش الخاص بي، وأنا أتجرَّع القليل من النبيذ ثم سكبتُ البقية على الأرض أمامي كان القليل منها يكفيني لأشعر بالدوار، واستسلم للنوم.
رأيت نفسي داخل صحراء كبيرة، أمشي فوق الرمال الملتهبة والشمس في كبِدِ السماء ما إن اقتربت من أسوار

المملكة وقد تناهى إلي عظمتها، ناظرتُ رجل عجوز يقترب من الأبواب الموصدة وقدميه ترتجفان من تحته، تبعته قليلًا ببطء قبل أن أقف خلفه ويداي تتعرقان، شعرت ببرودة تسري في جسدي لأشعر بالخدر أطراف أناملي، أراه مقوَّس الظهر بشعره الأبيض واضعًا إلى جانبه عصا خشبية غليظة يتكئ إليها ينظر إلى المملكة من الخارج وهو يلوي رأسه بحسرة.

اقتربت منه فتاة مرتدية قفطانًا طويلًا وستارًا تغطي به ملامح وجهها، يبدو على جسدها علامات النحل والضعف، تتجه بقلق وخوف تلتفت تارة إلى الخلف وأخرى من حولها وكأنها لا تريد لأحد ملاحظة وجودها، تمتمت في أذنه بضع كلمات ثم اختفت فجأة!

وماهي إلا لحظات حتى رفع يديه المرتجفتين إلى السماء وهو يردد كلمات بلغة مختلفة لم يسبق لي سماعها من قبل، رفع عصاه نحو السماء وضرب بها فوق الرمال الناعمة والملتهبة لسبعة مرات متتالية، حتى رجَّت الأرض من تحت أقدامي.

وهو يقول:

- هذا الدم رجس، هذا الدم حرام هلكت تيامين، هلك كل من في مملكة الدم المقدّس.

سطع نور من السماء أفقدني وعيي وابتلعتنا الأرض في جوفها.

فتحت عيني مرة أخرى، لأجد الغيوم القطنية البيضاء من خلف النافذة تعلن عن طقس مستقر أما الشمس التي بدأت بالشروق رويدًا لم تكن حادَّة كما عهدتها من قبل!

شعور ما داخل قلبي خُلِقَ فجأة كان يودُّ مني قبول المهمة، أما عقلي فكان يقاوم الأمر وهو يصرخ بغضب فهو يحبُّ حياتنا الرتيبة التي نحياها.

أغمضت عيني قبل أن أقرر بشكل نهائي إرسال تلك الرسالة النصيَّة عبر البريد الإلكتروني لعميد الكليَّات عن قبولي المهمة.

ماهي إلا دقائق معدودة حتى قام بإرسال صورة عن تذكرة السفر بالشكل الإلكتروني وموعد السيارة التي ستقلني من المنزل نحو المطار للذهاب إلى مصر على الفور.

لم أعلم بأن الوقت سيمرُّ بهذه السرعة؛ فأنا لا أملك سوى البعض من الحاجيات القليلة التي حزمتها بحقيبة سوداء صغيرة.

قد أعلنت تيمقاد وصول أولى نسمات الخريف الجميلة؛ لذلك قررت الخروج نحو الآثار المهدمة، والسير بين المدرجات لبعض الوقت وملامسة الأعمدة الجميلة كوداع أخير بين الحبيب والمحبوب.

لم أعرف كم مضى من الوقت حتى وصولي إلى المطار وصعودي إلى الطائرة لكنني شعرت بنفسي أمسك حفنة من التراب الرملية، أخذتها وأنا أودع منزلي للمرة الأولى، عادت بي ذاكرتي للماضي طفلٌ صغير يمشي بين

الأعمدة والمدرجات القديمة الملتفة أركض نحو السماء الصافية، أنظر إلى يدي الفارغتين وكأنني أضعت شيء ما لا أعلم ما هو تمامًا، جعلني بحاجة إلى عناق دافئ بين يدين والدتي الغالية فسالت دمعة حارة فوق وجهي، ترددت مرارًا وأنا أشاهد رقمها من خلف الشاشة، هل يتوجب علي الاتصال بها أم أنه يتوجب علي الصمود ومكابدة آلامي لوحدي؟ فأنا أخاف عليها من الحزن، مسحت دموعي بسرعة وأنا أتمتم تلك هي مشاعر الغربة عن الوطن لا أكثر، أعلم جيدًا بأنني سأشتاق إلى مدينتي بهذه السرعة، للغربة طعم مرّ المذاق لا يمكن مضغه، يقف في حنجرتك أبد الدهر إلى أن تعود إلى حضن الوطن.

أمسكت بين يدي ملف المهمة الموكلة إلي، كان بحثًا عن تاريخ مملكة الدم المقدس برفقة

طلاب لم أراهم من قبل، ولا أعرف مدى تعمقهم في تاريخ مصر ولا حتى الحضارات القديمة عمومًا.

تنهدُّت وأنا أشير إلى مضيفة الطيران، أبدي لها عن رغبتي في احتساء كوب من القهوة راجيًا أن تصل الطائرة إلى مصر في أسرع وقت.

هبطت الطائرة بسلام وقد طلب منا المكوث قليلًا إلى أن ترشدنا المضيفات نحو الباب بشكل منتظم كانت الإجراءات الروتينية تجري بسرعة.

خرجت بهدوء من البناء المخصص للقادمين وأنا أنظر بتؤدة وتأني إلى أن رأيت الشاب المدعو بآدم يقف من بعيد، تميَّزه قسماته الحادة بجسده الضخم وشعره الأسود المجعد، وقد رأيت صورته قبلًا بالمرفق الخاص بالمعلومات الشخصية عن الفريق الخاص بي كما دعاه لي عميد كليتنا، وقد أرسل إلي رسالة ليخبرني بها أن الطالب آدم من سيأتي ليأخذني المطار، الشاب المصري في الفريق أي أنه خبير في منطقته وتعامله مع الدوائر الحكومية وهذا ما حصل بالفعل انتهت جميع الإجراءات الروتينية والأوراق المطلوبة من أجل الحصول على الإقامة المخصصة للعمل خلال ساعات قليلة.

اقترب مني وهو يحيّني بلهجته الصعيدية الحارَّة، وسار معي نحو الباص الذاهب إلى القاهرة.

على الرغم من جلوسنا جنبًا إلى جنب إلا أننا بقينا صامتين طوال الطريق، كانت الأجواء هادئة تمامًا في ساعات الصباح الأولى عدى عن بعض الأصوات القادمة من الشوارع والباعة، قررت كسر حاجز الصمت بعد زمن طويل وأنا أتحدث إليه محاولًا جعل كلماتي باللغة العربية الفصحى؛ لكي يستطيع معرفة ما أقول:

- هل يمكننا الذهاب الآن إلى مدينة سوهاج ؟!

نظر إلي بحذر ثم أعاد النظر إلى ساعته قليلًا قبل أن يقول بشيء من الارتباك:

- الساعة الآن تقارب العاشرة، وقد بدأت الشوارع في الازدحام عدى عن كوننا سنستغرق وقتًا أطول للعودة إليها.

قاطعت كلماته المرتبكة، وأنا أنظر إليه بحزم وشيء من المرونة قائلًا:

-فلنذهب غدًا صباحًا برفقة بقية الزملاء.

حاولت تصنُّع الابتسامة؛ كي لا يشعر بثقلي عليه، أو حتى ببعض الإجحاف لكنني لم أفلح بالأمر.

وصلنا إلى حيٍّ شعبي يعج بالناس من مختلف الجنسيات والأديان على ما أعتقد، كانت تقف فتاة شابة إلى جانب الفندق تضع قلادة للسيدة العذراء ترفع شعرها الغزير بقطعة قماش باللون البنفسجي قسمات وجهها الحادَّة وابتسامتها الساذجة والحالمة وبريق عينيها، جعلتني أدرك بل أتأكد على الفور من هويتها، إذًا هذه أماليا الفتاة الكاتبة للتقرير الأشبه بالخيال كان يبدو عليها أمارات الشجاعة والجرأة على الرغم من جسدها الضعيف ونعومتها، وإلى جانبها تقف فتاة تحمل الكثير من الكتب، مرتدية لباس واسع تغطي شعرها ستار حريري باللون الأبيض جزمتُ على الفور بكونها الفتاة المصرية أسماء.

قامت الفتاتان بالاقتراب إلينا في الوقت الذي وصلنا به إلى باب الفندق، لم أشأ التحدث إليهما قبل جلوسنا في مكان أكثر هدوء؛ لذلك اكتفيت بالنظر إليهما، وأنا أشير للجميع بالدخول ورائي نحو قاعة الاستقبال الخاصة بالفندق.

كان الجميع من حولي يتبادلون نظرات غريبة لم أفهم معناها، أو أنني بدأت أشعر بالإعياء بعد سفر طويل ومرهق.

قام آدم بجلب البعض من المشروبات الباردة برفقة شطائر محلية لكنني لم أكن بصدد تناول

شيء ما، أو حتى التفكير بكيفية البدء بالحوار معهم، وأنا أشعر بصداع في رأسي وطنين في أذني جعلني أفقد اتزاني وأشعر بالإعياء.

ما إن جلسنا حول الطاولة البلورية المستديرة حتى قفزت إحداهنَّ تقول لي:

- أماليا هو اسمي وقد قمت بكتابة التقرير لا أكثر، قال لي إحدى الأساتذة في جامعتنا بأنني أحظى بقوة ودهاء شخصية الملكة تيامين التي حكمت مملكة الدم المقدس، لكنني لم استطع تصديق الأمر حتى رأيت تلك اللوحة الطينية، والتي رسمت عليها صورة للملكة.

نظرت إليها للمرة الثانية، كانت امرأة شابة في عقدها الثاني، تحاول إثبات نجاحها وتميُّزها بالكثير من الكلام المُنمَّق والحماسي معًا.

همستُ في داخلي وأنا أنظر إليها: لا أعتقد كثيرًا أن الأمر صحيح، و إلا ما كانت ستصبح ملكة ذات يوم، فأنا لا أنفي وجود ملكة بلهاء حتى وإن كانت امرأة!

وضعت كلتا يداي أمامي وأنا أحاول ترتيب الأفكار لدي؛ فهذه المرة الأولى التي أعلم بها اكتشافهم مكان المقبرة، وابتدائهم

البحث مع أستاذ آخر، لكن ما هو الشيء الذي جعله يتوقف عن العمل؟!

على الرغم من معرفتي اليقينية بوجود خلل كبير في تحديدهم مكان البحث أو حتى وجود شيء مهم كما قد قيل.

أكملت الفتاة الأخرى بقليل من الحذر وكأنها سمعت صوت أفكاري لتجيب عليها:

- اسمي أسماء وأنا من القاهرة، أعلم جيدًا بكونك تسأل نفسك عن سبب توقف الأستاذ السابق عن العمل معنا، لقد استطعنا منذ قرابة الشهر اكتشاف المقبرة، وبدأنا بتفكيك الرموز الموجودة في غرفة الملك القابعة فوق الأرض، وكنا على وشك النزول؛ لاكتشاف المدفن تحت الأرض لكنه قرر الانسحاب في اليوم التالي دون أي مبررات ، بل حتى أنه غادر مصر نحو بيروت للعمل في أحد المتاحف، كان الوقت آنذاك مهمًا لدينا لكن عميد الكلية قال لنا بكونه سيحاول التواصل مع أستاذ يثق بحبه للتاريخ وشغفه للعمل، وها نحن ذا.

نظرت إلى الثلاثة على التوالي وأنا أقول:

- إذن أين صديقكم الرابع ألم تكونوا أربعة طلاب؟!

أجاب آدم بفتور: نعم جورج الشاب اللبناني، هو شاب انطوائي، وقد أخبرني بعدم مجيئه، سنلتقي في الكلية غدًا، أما اليوم فلديه ترتيب الملفات المطلوبة لنعطيك إياها بعد أن جمعناها.

أمسكت كأس الماء وتجرعته دفعة واحدة، لأنهض من مكاني وأنا أقول لهم بحسم:

- سأخبركم الأمر المهم الذي يتوجب عليكم معرفته بدقة، حسنًا؟ لكنني لا أود أن أثير رعبكم، أنتم لم تكتشفوا مكان المقبرة كما خُيِّل إليكم، لقد رأيت جميع الصور الملتقطة وهي لمقبرة فرعونية، اكتشفها فريق منذ قرابة السنة، لذلك عليكم حرق البحوث أو جعلها تذكرة، ربما إرسالها للجحيم إن أردتم، لكن فلتأتوا غدًا إلى مدينة سوهاج برفقة آدم وعقولكم فارغة من هذا الهراء، وليتواجد الجميع دون استثناء.

نهض الجميع وطلبوا الاستئذان للرحيل، أما أنا فقد حملت حقيبتي وفي جعبتي الكثير من الأسئلة، مشيتُ بوهن وأنا أشعر بأمر غريب يحدث، لم يذكر لي أي أحد قبل الآن جميع تلك الأحداث، هل أخطأت بقبولي تلك المهمة الغامضة؟!

صعدت السلالم برفقة الشاب الذي أبدى رغبته بمساعدتي في معرفة طريقي إلى غرفتي، كانت الغرفة تحمل نفس الرقم الموضوع على الملف الخاص بالبحث 180 ق.م.

أمسكت مفتاح الباب لأضعه في مكان القفل، لكنَّه فُتِحَ دون أي مشقة صادرًا عنه أزيز مزعج مُحدِثًا جلبة تفوق الخيال، تفوح رائحة الرطوبة من داخلها.

أمسكت حقائبي ووضعتها فوق السرير وأنا أنظر إلى الجدران كانت مُغطَّاة بورق جدران باللون الأخضر

المقيت، وعلى الجدار الثالث تقبع صورة مائلة قليلًا تحمل داخلها صورة رجل عجوز قسمات وجهه توحي بالكثير من الجنون والجموح، تحمل عينيه نظرات غاضبة مُحمَّلة بالكراهية والانتقام.

أعادني للواقع شعوري بيد تمتدُّ لتلامس كتفي؛ لالتفت إلى الوراء، في البداية لم أرَى سوى يدين مجعدتين لرجل عجوز، كانتا ترتجفان باستمرار.

نظرت إليه وإذ به يجلس على الكرسي الخشبي في وسط الغرفة، بشفتين مذمومتين ووجه ممتلئ بالتجاعيد والبعض من الجروح القديمة.

تبين لي أنه الرجل المتواجد في الصورة المائلة خلفي، أشار إليها برفع أصبعه فاهتزت وعادت مستقيمة.

تبيَّن لي من قسمات وجهه بكونه محارب قديم شجاع، بل إنه لم يكن مجرد بيدق داخل المعركة، بلأحد فرسانها وأكثرهم جرأة وقوَّة.

تذكرت حلمي ليلة أمس قبل مغادرتي للجزائر، والقدوم إلى هنا.

اقتربت منه وجلست على المقعد المقابل له وأنا أنظر إلى داخل عينيه، فخرجت الكلمات من فمي مُتعثِّرة وفوضوية:

-أهذا أنت؟!

أحنى رأسه إلى الأمام وهو يضع يديه على أطراف المقعد الجالس عليه، ينظر إلي مرة وإلى العصا الخشبية المائلة بقربه أخرى، ثم تمتم لي بكلمات أشبه بالهمس:

- هل سبق لنا أن تقابلنا؟!
- ....
- لكنني أعرف عنك كل شيء يا محمد!

السبب من زيارتك مصر، ومغادرتك تيمقاد أيها الطفل البائس والعنيد، أعلم حجم اشتياقك لعائلتك وحبِّك لهم، أنت شاب ذكي يا محمد، ولأنك اخترت المكان المناسب الذي ستبدأ منه سأقول لك ونعم الاختيار، مملكة الدم المقدس مملكة مفقودة تحت الأرض الأولى، ولن تجدها إلا بإذن الله ولنصرة الخير على الشر تذكر ذلك جيدًا، ليس من الغريب أبدًا مجيء شاب مثلك إلى هنا، ومن أجل البحث عن مملكة الدم المقدس وتاريخها، لكنني لا أعتقد بكونك تخاطر من أجل المجهول، فما بالك بماضي مملكة أهلكها الله غضبًا؛ عصيانهم له؟!

وهل تعتقد أو تجزم بكونهم ملكان بريئان ضحى التاريخ بهما دون رأفة أو رحمة؟!

تيامين امرأة متجبرة ساحرة للرجال، وهذا هو السر في نجاح حكم الملك هيوماين باتحاد ممالك ثلاث حضارات مختلفة في الثقافات، الديانات، العادات، والتقاليد أيضًا.

اخبرني يا محمد ما الذي حصل لتدمر مملكة مزدهرة أو سقوطها بهذا الشكل؟

- ربما كان الأمر بسبب حرب نشبتها أنت؟!

خرجت الكلمات من فم محمد بانسيابية تامة، كانت ملامح وجهه ثابتة ولهجته تلقائية تخرج الكلمات ببرود، وكأنها إجابة عن سؤاله بلغز آخر.

- لقد رأيتك تقف أمام أسوار المملكة وقد خرجت فتاة من إحدى أبوابها؛ لتخبرك بشيء مهم وخطير، لدرجة أنك جثوت على ركبتيك ورحت تدعوا بأعلى صوتك بكلمات واضحة؛ لتدمير المملكة وهلاك تيامين.

أتساءل إذا ما كنت أيها الفارس أحد ضحايا تلك المرأة الغاوية، أو أنك أحد عشاقها بسبب جمالها الأنثوي الطاغي.

فغر الرجل فاهه وهو ينظر إلى محمد وارتعدت فرائصه غضبًا لكلامه الذي لم يكن ليتوقعه منه.

نهض عن المقعد بسرعة، وتخطى المسافة القصيرة التي كانت بينهما بخطوة واحدة حتى أصبحا وجها لوجه، قال بصوت مثخن وكلمات فظَّة غليظة:

- إذًا لن تدع هذا الأمر؟!

أجابه بتحدٍّ وثقة تامة:

- أو أهلك دونه.

سار العجوز نحو الباب وعو يتكئ على عصاه الخشبية الغليظة، وهو يوجه له كلماته الأخيرة:

- لن يكون هذا لقاؤنا الأخير أيها الباحث المتعجرف، لكنني سأبلغك بآخر رسائل السلام التي بيننا.

دع الأمر عنك، أو تحمَّل العواقب أنت وفريقك الجديد.

لن ينتهي الأمر عند هذا بل سيدخل في المعركة التي بيننا جميع من أحببت حتى أهلك الذين يعيشوا في فرنسا بسلام كما تظن، ستنقلب حياتهم رأسًا على عقب.
وسأعطيك مهلة لثلاثة أيام لا أكثر، فكِّر جيدًا قبل إخباري بقرارك النهائي.
خرج من الغرفة وهو يصفع الباب خلفه بقوة، رجَّت الأرض من تحته، تنهَّد وهو يستلقي على السرير بشيء من الاستسلام والحيرة، لربما كان هذا العجوز هو من جعل الباحث التاريخي الذي قبله يقدم على الاستقالة، أما هو فلن يستسلم قبل أن يعرف الحقيقة كاملة.

أخرجته نحو الواقع بحركة من يدها بعد أن قامت بإغلاق الكتاب وهي تتحدث إليه بفتور:

- أما الآن وقد اكتسبت فكرة بسيطة عن القصة داخل الرواية فأخبرني عن رأيك؟!
- حسنًا قال لها وهو يضع الكتاب على الطاولة الصغيرة بينهما ويسند مرفقيه إلى المقعد مُعتدلًا في جلسته، كانت الشمس عاودت للشروق مرة أخرى تظهر أشعتها بين الغيوم تارة وأخرى تسطع بقوة؛ لتخترق نوافذ القطار فتبعث على الدفء.
- أعتقد أنها قصة جميلة تحتاج إلى بذل مجهود أكبر، فأنا أشعر بنقص كبير بين حلقاتها.

السبب في تعيين مصر كمكان للآثار أو حتى المملكة هو أن الفراعنة أكثرهم منتشرين في تلك البلاد، لكنهم أيضًا

متواجدين في بلاد عدة وليس حكرًا على ذاك الوطن هذا أولًا، ثانيًا لم أعلم ما هو السبب في بدء الرواية من المحكمة والقضاء بدلًا عن كتابتها منذ دخولهم المملكة طالما كانت القصة خيالية فبإمكانك كتابتها والغوص داخل عالم الخيال كما يحلو لك، فلماذا قمت بوضع حدود لكل ما قمت بكتابته؟!

حتى أنني أحببتُ وجود مملكة تجمع بين حضارات العالم، لذلك قررت إكمال قراءة الرواية ولكن بعد سماعي إجابتك عن جميع أسئلتي.

- أما عن حدوث فجوة كبيرة فهو لجعل القارئ يتخيل البعض من الأحداث، وخلق مساحة إبداعية لديه بدلًا عن إعطائه جميع تلك الأحداث ورسمها له.

أردفت قائلة: وأما المملكة فلم تكن داخل مصر، وإنما البوابة لدخول العالم الموازي كان من خلال تلك الأرض لكونها الأكثر خصبًا لذاك التاريخ وإن تواجد في بلاد كثيرة.

وعن سبب بدء تلك الرواية داخل المحكمة لأقول للعالم بأن بعض العلوم والأساطير لم تخلق من الوهم أو العبث، أتعلم يا صديقي بأمر خرافة؟!

تركت مساحة من الفراغ كمن يقوم بنثر ثلاث نقاط على سؤاله بدلًا عن إشارات الاستفهام قبل أن تكمل:

- خرافة هو رجل رأى عالم الجن وتعايش معهم حتى رأى من قصصهم العجب، وحينما عاد إلى عالم الأنس بدأ

يروي للناس حوله ما شاهده داخل ذلك العالم، والغرائب التي حصلت أمام ناظريه، حتى سُميت تلك القصص بالخرافية.

لا أحد يعلم بصحة تلك القصص لكونه لم يراها أمامه تحصل، أو حتى سمع عن وجودها في مكان قريب؛ لذلك لم يصدق بوجودها أحد، وبهذا يثبت الإنسان بكونه لا يثق إلا بما تمليه عليه حواسه الخمسة ويشعر بها بنفسه.

قاربت الشمس على المغيب، بعد أن غابت أشعتها الدافئة، كم كان الأمر جميلًا رددت في سرها، لأن ترى جمال الكون داخل القطار والحياة بمختلف مراحلها، مع تعدد الأعراق والجنسيات لربما الأديان.

شعرت داخلها بالامتنان وقد عرفت السبب الذي يجعل الروائيين والكتاب العالميين يلجؤون نحو القطار كلما شعروا برهبة الورقة البيضاء، أو تشتت أفكارهم.

كان ماجد يبادلها الأفكار ذاتها بصمت لذلك قرر التحدث مرة أخرى لكن هذه المرة للتعرف إليها عن قرب:

- أخبريني عن بداياتك داخل عالم الكتابة، وما هو السبب الذي جعلك تقومي بحذف أول كتابين تم إصدارهما لكِ؟!

انحنت نحو الأمام وهي تسند مرفقيها فوق الطاولة كمن يستعد للبدء في رحلة كتابة طويلة، لتنزل نظارتها وتضعها بين أيديها وهي تتأمل تفاصيل غيَّبتها عن ذهنها لوقت طويل:

- كانت بداياتي داخل الكتابة في عام 2017ميلادي بالاشتراك مع مبادرات جديدة وأفرقة تدعو إلى الكتابة والقراءة، كل الشكر والتقدير لصديقتي التي قامت بإخباري بوجود تلك المبادرات الرائعة التي جعلتني انسى الحرب التي كنا نعيش داخلها الجوع والفقر، والنيران المضرمة في كل مكان أصوات المدافع والصواريخ، وخسارتنا للمنزل الذي عشت داخله طفولتي برفقة أشقائي الثلاث، بتفريغ مشاعري وطاقاتي الكامنة داخل هذا العالم.

رسم الحروف وبناء عالم الخيال كانت هوايتي المفضلة، مع الأخذ بالعلم كوني وحيدة لا شقيقة لدي أمضي معها أوقاتي الجميلة أو الحزينة، لذلك اخترت من الكتابة شقيقة لي أبوح لها بكل ما يخالج صدري دون حرج أو حتى خجل، لذلك كانت في بعض الأحيان كلماتي قوية مُتمرِّدة لا تشبه أي شيء عرفته قبلًا.

أما عن سبب حذفي لبداياتي، بالرغم من محبتي الكبيرة لتلك البدايات ومكانتها الكبيرة في قلبي إلا أنني ارتأيت أن أترك الأفضل منها، مع قناعتي بكونها الأجمل والتي ترضيني ككاتبة محتوى ومبدعة.

وقد رأيت الكُتَّاب والروائيين كُثُر في هذا الوقت، فقد أصبح عالم الكتابة شغل من ليس له شغل، بل أنه تعدى الأمر إلى أن أي شخص يستطيع تركيب جملة مفيدة يرى في نفسه الشاعر والكاتب الملهم، أما الأسف الأكبر هو اعتماد الجميع على

اللهجة العامية مع وجود أخطاء فادحة تبكي لها لغتنا العربية لشعورها بالإهانة والهوان في نفس أبنائها.

تنهدت بضيق قبل أن تكمل:

أنا ابنة دمشق أقدم عاصمة في التاريخ، لا يهمني الأمر إن كنت عربية الأصل كما حالي الآن أم أرمينية أو آشورية، أو حتى فرعونية، ما يهمني فعلًا هو كوني أحمل لغة عربية فصحى فخورة بانتمائي للقائد الأفضل على مرِّ التاريخ، أشعر بالإهانة والذُل إذا ما رأيت أشقائي يتهاونون بهذا الأمر.

تغيرت ملامح وجهه بعد أن تذكر كم القصص التي رآها على مواقع لينكد ان والفيس بوك المكتوبة باللغة العامية والتي تحمل لهجات البلدان، عدا عن اعتقاده للمرة الأولى أنه لا يستطيع فهم لهجات العالم أجمع، إلا أنه اكتشف كون الأخطاء الإملائية هي أكبر عامل لعدم فهمه المغزى من تلك القصص التي كتبت من أجل حشو الفراغ داخل تلك المواقع لا أكثر!

- ألا يمكن للمرء التحدث مع هؤلاء الأشخاص وإخبارهم بحقيقة الأمر؟!

قال لها طارحًا سؤاله كاقتراح لحل تلك المشكلات التي تبدو بسيطة لكنها تؤثر على أجيال جديدة ستأخذ علمها وثقافتها من هؤلاء الأشخاص.

- أتظنُّ أنني وقفتُ مكتوفة اليدين أشاهد تلك الأفعال دون النطق بحرف واحد، لكن في هذا الوقت حيث لا أحد

يسمع أو يريد تقبُّل الرأي الآخر، النقد الذي سيجعل منه الأفضل، بل إنه يرى نفسه فوق الجميع متميز بكل ما يقوم بفعله ولو كانت كلمات عشوائية دون فهم، جعلتني أبتعد عن النقاش والحوار مع من لا يمتلك أذان صاغية، هم قوم صُمٌّ لا يرون أبعد من أنوفهم.

دخول الفتاة من بوابة المقطورة تركض وهي تصرخ بأعلى صوتها جعل جميع الحاضرين يلتفتُ إليها، بمن فيهم ماجد ومريم، كادت أنفاسها المتسارعة تُمزِّقُ صدرها أما وجهها المائل إلى الحمرة يوحي بحدوث شيء كارثي في المقطورة المجاورة، لم تكن كلماتها المغربية مفهومة بالنسبة إلي، لكنني أعتقد بأن ماجد استطاع فهم الشابة بشكل دقيق، حتى أنه نهض عن المقعد مسرعًا يرفع حاجبيه نحو الأعلى وهو يتحدث معها بنفس اللهجة.

بعد عدة دقائق هدأت من روعها بينما هو تقدم من المكان المخصص للحقائب يأخذ حقيبة صغيرة تشبه أدوات الإسعاف من بين أغراضه.

ربما دهشتي وإطالتي النظر إليه جعلانه يتحدث إلي موضحًا ما حدث قبل قليل، وقد قال باللغة العربية الفصحى:

- تقول الفتاة الشابة بوجود امرأة في العقد السادس من العمر قد غابت عن الوعي منذ قليل ولم يستطع أحد إيقاظها، لكن كما قيل لها من أحد المسافرين، فقد قام بقياس نبضات قلبها ووجدها ماتزال على قيد الحياة؛ لذلك

ربما أني الطبيب الوحيد على متن المقطورتين هنا؛ لذا يتوجب علي الذهاب ورؤية المريضة، هل بإمكانك مساعدتي في الأمر؟!

ابتسمت بهدوء قبل أن أجيبه على الفور:

- عملت ممرضة في إحدى المستشفيات، وقد خرجت من الحرب التي دامت عشرة سنوات، فتعلمت أشياء كثيرة منها التمريض.

ما إن نهضت مريم برفقة ماجد حتى تسارعت خطواتهما ليصلا نحو المرأة العجوز التي وصفتها لهم الفتاة الشابة، كانت تجلس في نهاية المقطورة إلى جانب النافذة، تتنفس بصعوبة بالغة وبيدها صورة قديمة يميل لونها إلى الأصفر الغامق، بأطراف مهترئة، في جيدها سلسلة للصليب وفي ثغرها صلوات المؤمنين، تنظرُ إلى السماء البعيدة بعينين ممتزجة بالكحل الداكن والدموع الثكلى، تئنُّ بصوت خفيض كطائر مجروح، غير محترقة للازدحام الذي جلبته ذكريات الماضية معها، بينما كانت تلفُّ يديها حول خصرها محاولة لعناق أحد الراحلين، كان ابنها الوحيد هو الراحل الباقي معها!

كان ماجد يقوم بقياس ضغط الدم ونسبة السكر والأكسجين داخل جسدها، بينما أحاول تهدئتها والتحدث إليها، لكن عبثًا كانت محاولاتي المتكررة بِلا جدوى، صوتها الضعيف عاد ليخرج بتراتيل ودعوات أم تنتظر عودة ابنها الوحيد:

أبانا في السماء ليتقدَّس ملكوتك، احمي ابني عيسى إنه طبيب في مقتبل العمر. دموعها النافرة على وجنتيها تشي بصمودها لسنوات طويلة، تردف قائلة: أبانا في السماء إن ابني ذهب ليساعد الناس في بلاد بعيدة، هو طبيب جيِّد مُحب للخير يحاول أن يكون قربك بصلاته وصبره، احمه من الشرير ونجِّه لي.

ختمت صلواتها ببضع حركات أنهتها بقبلة على الصليب وتنهيدة الخاشعين، بينما كانت قد انتهت من تلاوة صلاتها نهض الشاب ليجلس إلى جانبي، بينما كانت نظرات الاستغراب تبدو على وجهه بضيق أكبر من قبل وهو ينظر إليها مرة ويعيد النظر إلي.

لم أشعر أنني أجهشت بالبكاء معها بدلًا عن مواساتها وكفِّها عن الأمر، كانت دموعي سخيّة وكأنني الفاقدة لا هي.

مسحت وجهي بباطن كفي بمنديل ورقي ناولني إياه وهو يتجنَّبُ النظر إلى وجهي، قبل أن يقول لي بلغة عربية سورية صافية:

- جبناك يا عبد المعين لتعين....

ثم انفجر ضاحكًا وهو يحرِّكُ رأسه بسخرية، أما أنا فقد ذِبتُ من خجلي حتى تضائل حجمي وشعرت بنفسي ذرَّة صغيرة في الهواء الطلق.

- ليتني ذرَّة من غبار الطلع أرحل من ضيق المكان لسعة الكون.....

قالت جملتها تلك تاركة نهايتها مفتوحة، وأنا أنظر نحو السماء الصافية، يتخللها ريح ممزوجة بغبار الأزهار، والبعض من النحل.

لا أعلم إذا ما كانت جملتي العشوائية تلك هي من جعلت المرأة تتحدث إلينا للمرة الأولى، أم أن الشبه بين ماجد وابنها قام بتحريك قلبها قبل جسدها.

- أهذا أنت يا بني؟!

قالت المرأة وهي تنظر نحو الشاب الطبيب الماكث أمامها، كانت عيناها تلمعان بشوق، أما يديها فكانتا تمتدان لتعانق بباطن كفيها وجهه، لا أعلم ما هو السبب الذي جعله يكذبُ عليها بهذا الشأن.

صمت قليلًا وهو يغمض عينيه بهدوء قبل أن يفتحهما مرة أخرى ويجيب عليها:

- نعم يا أمي هذا أنا ابنك، أتيتُ لأراك قبل أن أرحل مرة أخرى.

نشجت بالبكاء لكن هذه المرة كان صوتها يمزّقُ الفضاء، أمسك كتفيها بقوة بينما عانقته بشوق ولهفة السنوات الماضية.

- لا أعلم لماذا اخترت تلك البلاد البعيدة على أن تختار أمك، ارجع يا ولدي أنا أيضًا مريضة وأحتاجك.

أبعدته قليلًا لتنظر داخل عينيه، اقتربت من جسده لتتنشق رائحته، عاودت البكاء مرة أخرى لكن بصوت أعلى:

- أهانت عليك أمك يا عيسى؟!

هذه الحرب ليست حربنا يا ولدي تعال أنا لا أود أن تصبح طبيب، فلتكن نجار أو حداد، أو كُن شاعرًا وطنيًا كما أردت ذات يوم لكن عُدْ إلي مرة أخرى.

كنت أود القول بأنه ليس ابنها، لكنها سبقتني حينما هدَّأت من روعها وأعادت البسمة إلى شفتيها وهي تربِّتُ علي، تومئ لي بنظرات ذات مغزى لكن لا أحد استطاع فكَّ شيفراتها سواي.

نهضتُ في اللحظة التي وجدته يقوم من مكانه، اقترب من المرأة وقبَّلها من جبينها، كادت أن تستبقيه، لكن في النهاية كمن تذكَّر شيئًا ما تركته يبتعد عنها.

أدار ظهره ليعود من حيث أتى، باغته صوتها الأجش تتحدث بلكنة لم أفهمها قام بترجمتها لي بعد أن وصلنا إلى المقاعد.

نظر إلى داخل عيني ثم قال بنبرة تشوبها الحزن:

- كانت تعلم منذ البداية بأنني لستُ ابنها، لكنَّها كمن استحضر روح من فقد في لحظة شوق عارمة عانقته وبَكتْ فراقه، الموت الذي كان عدوها الأول كما قالت قام بتفريقهما، لذلك حينما عانقتني كانت تستحضر ابنها الوحيد الذي اشتاقت إليه، كسرَ غيابه ظهرها واحنى روحها، هكذا هي الأم لا يمكن لقلبها استيعاب لفظ الموت يعانق أحد أبنائها فكيف بأخذه ابنها المتبقي لها من أمل في هذه الحياة.

لو أننا نستطيع أخذ وقت مستقطع، نرتاح قليلًا من هذه الحياة، كأن تكون قطار يأخذنا نحو وجهتنا، وحينما نتعب نهبط عند المحطة التالية ذاهبين نحو الفراغ، حيث اللاوجود لأي شخص أو حتى مشاعر، هناك حيث ترتمي بِكُلِّك نحو الأعماق وتغوص نحو مكان مجهول حتى في الصفات؛ لكي نرتاح كما لم نفعل من قبل.

أن نعيش بدون أن نقوم بحساب الزمن أو الأخذ بالاعتبار عن وجود شخص ما يتوجب علينا الاعتناء به دون الاكتراث بأمر مشاعرنا التي تشيبُ مع التقدُّمِ بالعمر.

تنهَّد بعمق قبل أن يكمل حديثه، الذي خرج منه بصعوبة بالغة، كمن يحارب شوق قلبه بيديه ينظر نحو السماء الصافية:

- ذاك الحنين لم يكن للمنزل الأول أو للنبضة الأولى داخل القلب؛ فالأماكن تتغير والحب يتكرر، كان الشوق دائمًا لذواتنا الطيبة التي أخذتها منا الحياة، وللضحكة العفوية التي كانت تنبعث من القلب، للعيون التي كانت تلمع بفطرة الأطفال وأرواحهم النقية، إلى الشغف الذي ركضنا به داخل طرقات الحياة فكادت أن تسقطنا موتى مع ضرباتها المُتتالية.

العجب لم يكن من وقوفنا مجددًا بقلبٍ ثابت وخطوات مُحكمة واثقة من طريقها، بل من كوننا أصبحنا نعيش من أجل استمرار الحياة لا لأحلامنا التي بنيناها منذ الصغر.

المحطة الرابعة: الرقص على ألحان الحياة.

بعد نصف ساعة من الأحداث التي مرَّت شعر كلا الشابين بالتعب، فأخذ كل واحد منهما استراحة قصيرة كُلٌّ على طريقته الخاصة.

أمسك ماجد نسخته من القرآن الكريم وأخذ يتلو الآيات بصوت منخفض تحيطه هالة من الخشوع، أما مريم فأمسكت مسبحتها تلامس أصابعها حباتها واحدة تلو الأخرى تُردِّد البعض من الأدعية، حينما دخل فرقة من الأطفال الصغار يتراقصون حول المسافرين، مرتدين أزياء مسرحية واضعين أقنعة بوجوه مضحكة، وأخرى تحمل رسوم توم وجيري، وغيرها الكثير من الرسوم المتحركة.

بدأت الفرقة الرقصة مع انبعاث موسيقى هادئة، لتبدأ الأيادي الصغيرة تُعانق بعضها البعض، تشكَّلت الأجساد على شكل حلقة مُغلقة.

بعد عدة لحظات بدأت إيقاعات الموسيقى بالتدرج من للإيقاع الهادئ إلى الفلكلور الإفريقي، بالتناغم مع القفزات الصغيرة والخطوات المرسومة بدقة كفراشات الربيع، رُسِمت الابتسامة على وجوه الجميع، حتى بدأ الحماس يتسلل إلينا، فتعلو الضحكات البريئة، كسحابة تموز كانت السعادة تغطينا، تُبعدنا عن هموم الحياة وكدرها، تلك المدة القصيرة برفقة وجوه الأطفال الصغار كانت كفيلة بتجديد الأرواح داخلنا.

بدأ الرجال والنساء بالتصفيق داخل إيقاع واحد منتظم، كما لو أنهم فرقة واحدة، لم يشعر أحد بالغربة أو الاختلاف عن البقية، تلك اللغة والثقافة الوحيدة التي اتفق عليها جميع الشعوب في العالم، ألا وهي الابتسامة، تمرُّ عبر القارات دون جواز سفر أو تعلُّم لغة وعادات وتقاليد المجتمع الذي تسافر إليه، بإمكانك أن تبادلها لشخص عابر ربما لن تراه مرة أخرى، يحملها طيلة يومه إلى الآخرين، أو قوة يستمدها الطفل من والديه للذهاب نحو العالم الخارجي؛ لمواجهة الصعوبات التي تقف أمامه.

انتهت الرقصة تترافق مع تصفيق حار ووقوف الجميع، كانت دموع الأمهات تنبعثُ من القلب بلآلئ تتراقص فخرًا بإنجاز فلذات أكبادهن الجميلة.

همس لي ماجد بصوت منخفض بعد العودة إلى مقاعدنا:

- كان لي الكثير من المشاركات داخل مسرحيات مثل هذه، وقد استمتعتُ بالتعرف إلى أصدقاء جدد من مختلف بلدان العالم، لكن سعادتي بهذا الأمر كانت مؤقتة، فقد رسم لي والدي الرجل الذي سوف أكونه منذ كنت طفلًا، فلم يقم بتشجيعي أو المجيء برفقتي في هذه المراحل، بل اكتفى بالنصح بالابتعاد عن هذه الأشياء في أقرب وقت، أما بعد أن بلغت سن اليفع فقد قام برفض مشاركتي بها بشكل قاطع مع إعلان قراره بشكل رسمي أمام أفراد العائلة.

تنهَّد بتعبٍ كان مغمض العينين وكأنه يحاول استرجاع رائحة زمن مضى، بملامح واضحة، ليشاهد الماضي كما لو أنه واقع يزوره في ليلة، أردف قائلًا:

- لكنها كانت مجرد تجربة للطفولة الجميلة ليس إلا...
- بإمكانك البدء بها من جديد، إذا أردت أن تعود إليها، لربما تصبح لديك هواية تقوم بممارستها في أوقات السعادة.
- قالت له مريم وهي تنظر إلى وجهه تعلو وجهها الابتسامة:
- ما القصد من وقت السعادة؟!
- تساءل ماجد وهو يضيق عينيه مستفسرًا عن ما ترمي إليه كلمتها الأخيرة.
- أقصد في الأوقات التي تجعلها لنفسك، الوقت الذي تبتعد به بنفسك عن الناس فتعود إليها لتقوم بتجديدها لتعود أقوى من قبل.

في هذه الأوقات أقوم بممارسة كل الأشياء التي كانت تفرحني عندما كنت طفلة صغيرة.

- حتى لو كانت الركوب على الأرجوحة. أجابها بشيء من المكر:
- نعم، ما العيب بأن نعود أطفالًا بين الحين والآخر، استرسلت مريم ضاحكة قبل أن تشير إليه بالنهوض.
- هيا انهض سنقوم بشيء ما معًا.

استدارت ذاهبة نحو نهاية المقطورة قبل أن تعود برفقة موسيقى تنبعث من نهاية الممر.

وقفا جنبًا إلى جنب، وكتفًا إلى كتف قاما بالرقص على إيقاعات الموسيقى الشرقية، يقفزان نحو الهواء بمرح مرتكزين على قدم واحدة، يقومان بإبدالها مع كل قفزة،

وللمرة الأولى استطاع ماجد الاستمتاع بالرقص على إيقاعات الموسيقى دون النظر إلى أي شخص أو الاستماع إلى انتقادات الغير.

ضحكا معًا مستمتعين بالوقت الذي ينقضي، قبل أن ترى مريم الساعة التي كانت تشير إلى وقت الغروب.

بقلم (ك) للنشر الإلكتروني

المحطة الأخيرة: " نهاية الرحلة"

كل شيء يعود للنهاية كما بدأ أول مرة مهما كان ذلك الشيء سواء رحلة في القطار، أم الالتقاء بصديق قديم في إحدى الحوانيت، أو حتى الاستمتاع برحلة عائلية، أو حتى التعرف إلى إنسان التقيته صدفة، حتى اليوم الذي يبدأ بشروق الشمس ينتهي بإعلان غروبها تختفي بين النجوم في السماء.

لذلك مهما بدى الأمر صعبًا لن يمُرَّ بسرعة كبيرة، أو أنَّك لم تجد حلًا لمشكلة وقعت بها، تذكر الوقت السعيد الذي مرَّ عليك بسرعة في ذلك اليوم، تَهُن عليك الحياة.

أعاد إخراج الرواية الورقية من جيب الحقيبة، بعد أن قامت مريم بوضع البعض من الفاكهة أمامهما على الطاولة.

- لن يكون لدينا الوقت الكافي لقراءة الرواية بأكملها لذلك سأقوم بالانتقال إلى الفصل الأخير منها.

أومأت برأسها موافقة وهي تضع مرفقيها على الطاولة أمامها، تسند وجهها بباطن كفيها للاستماع إليه وهو يقوم بفتح الكتاب نحو الفصل الأخير من الرواية.

دخول التاريخ

قامت المحكمة العليا بإرسال البعض من المختصين إلى الموقع الذي قام برسمه آدم بدقة كبيرة بعد الاستعانة ببروفيسور في جغرافية المنطقة والاستماع إلى أقوال الباحثين بشكل كامل وبالتفصيل الدقيق كما أراد القاضي عبدالناصر.

وقد قام بالذهاب برفقة الفريق بعد أن شغلت تفكيره تلك البوابة الموجودة في أرض مصر والتي تفضي إلى عالم أشبه بالخيال.

بعد الوصول إلى سوهاج والتأكد من وجود تلك البوابة الصخرية، التفت البروفسور محمد إلى القاضي عبدالناصر يحذره للمرة الأخيرة:

- هذه البوابة هي ممر عبور إلى مملكة الدم المقدس، تلك المملكة التي قام بحكمها ملكان بطريقة غير سوية، فكانت الدماء تتشرَّبُ دماء شعبها المظلوم، والذي ساده الظلم والقهر، أنا لا أنفي حقيقة تطور تلك الحضارة بعلومها وامتزاج الفنون داخلها حتى تجدها مزيجًا من ملامح ثقافة بابل العلوم الفرعونية، الأبنية الرومانية الضخمة والمُعتَّقة بأغلى جواهر الأرض، لكنها تحمل تحت كل بلاطة سمٌّ ومبادئ أخلاقية تعود إلى الظلم والجهل، أو يمكنك القول الأنانية وحب الذات في قلوب الحاكمين.

تيامين التي عاشت تظهر حبها للمملكة والتفاني في مزج الحضارات، كانت ترسل المحاربين القدامى الواقعين في فتنة حُبِّها لتوسيع مملكتها ونفاذ قوة مُلكها على وجه الأرض، وقد استعانت بجمال أنوثتها ودهائها، برفقة جان الأرض والسحر والشعوذة.

في المرة الأخيرة التي سبقت محاولتنا الدخول إلى المملكة ورؤيتها من الداخل، كادت الأرض ابتلاعنا بوقوع هزة خفيفة، أثَّرت تلك الحادثة في أماليا وجورج، ومنذ وقتها قررنا إنهاء

كتابة التقرير الخاص بالبحث مع تقديم الصور التي قمنا بالتقاطها عن تلك الآثار دون النظر إليها عن قرب.

- أما أنَّك كنت رجلًا جبانًا، أو تخليت عن البحث بدافع الابتعاد عن مواجهة مشاكلك كرجل حقيقي، وفي كلتا الحالتين أراكَ رجلًا جبانًا.

قال عبدالناصر بنبرة تشوبها التحدي.

بخطوات واثقة توجه نحو بوابة العبور التي قام بفتحها المختصين، وقبل أن يضع قدمه للنزول نحو الدرج الصخري القديم، ظهر من خلف الآثار الصخرية، رجلًا عجوز أشيب الرأس، على يديه صُبِغَت نقوش آشورية، فوق صدره ترسانة فرعونية، يحمل بين يده سيف حديدي، يتحدث باللغة العبرية صوته الخشن والغليظ مزَّق القلوب المتوجسة بحذر شديد وقلق.

ضرب بعصا خشبية غليظة الأرض الصحراوية، لتنتج عنها هزَّة أرضية عنيفة أوقعت الجميع بقوة وعنف، الأرواح المرتجفة والدعوات للخلاص من ذاك الرجل العجوز الذي ظهر من العدم، كان يتأمل الوجوه ويفترسها واحد تلو الآخر، بعيني حكيم رأى معجزات الأرض وعلومها منذ الأزل حتى اليوم.

اقترب من القاضي بخطوات سريعة، وبجسده الضخم غطى السماء الصافية، قبل أن يهمسُ له داخل أذنه:

- إذا كنت تريد العدل في حكمك، فعليك بالرضى عن تقرير الباحثين دون الأخذ بالأدلة أو حتى إثبات وجود المملكة

بشكل قاطع أو التعرف إلى مكان وجودها، أما إذا أردت الشهرة والمزيد من المال للوصول إلى السلطة، لتبقى على رأيك، بإدخال الباحثين نحو تلك البوابة فلن يخرج إليك أحدًا بعد أن يقوم بدخولها، تلك المملكة لم تكن من معجزات الأرض وحسب، وإنما من الممالك الملعونة.

ربَّت على كتفه وهو يقوم بغمزه رافعًا حاجبيه قبل أن يعود من حيث أتى ذاهبًا نحو المجهول.

لم يستطع أحد سماع الحوار الذي دار بين الرجل العجوز والقاضي، ولم يقنع أحد بعدم دخول المختصين نحو ذاك العالم السفلي، بل إنه لا أحد يدري كيف وجدت تلك المقبرة على مقربة من بوابة العبور، تحتوي على رُفاة الملكين، بأجساد مُحنطة والملابس والجواهر الغريبة التي تنتمي إلى جميع الحضارات لا واحدة وحسب، لكن قصة إنهاء القاضي عبدالناصر تلك القضية بالحكم على الجُناة والقيام بآخر مرافعة فوق بوابة العبور تلك كانت حديث القاهرة لسنة كاملة.

فقد قام بالنطق بالحكم وإعلان براءة المتهمين أمام الملأ، ودون تدوين تلك الجلسة بشكل دقيق أو النظر إلى رأي هيئة المحلفين.

أغلق ماجد الكتاب ليعاود النظر نحو مريم التي كانت تنظر إليه بهدوء، لم ينبس ببنت شفة أو يُبدي رأيه عن تلك النهاية التي قام بقراءتها، عوضًا عن ذلك قام بالنظر حوله يتأمل المسافرين من حوله، أما هي فقد أسندت ظهرها بصمت

مصطنع ومبالغ فيه وعندما توقعت عدم مبادرته بالتحدث بادرت بالقول:

- كانت نهاية غير متوقعة أو حتى منطقية؟!
- لا أعلم إذا بإمكاني تسميتها بالنهاية الغير متوقعة، أعتقد أنها كانت ملائمة لمنهج الرواية، ربما فعلًا كانت روايتك....صمت ماجد تاركًا نهاية كلامه مفتوحًا واضعًا ثلاث نقط بعد كلمته الأخيرة.

أكمل في نفسه: حتى بعد معرفتنا بحجم سوء اختياراتنا أو صنيعنا الذي نقوم به، لكننا غير قادرين على تلقي هذه الكلمات بصفعة من أحد المارين، وإن كانت تلك الحقيقة المُرَّة التي نُرِدُّدها داخلنا بين الحين والآخر.

- أعلم كونها الرواية الأسوأ لكنني شعرت بأهمية خروجها نحو العالم، وأنا التي قمت برؤية تلك المملكة وشخصياتها، لربما كان من حقي فعل الترهات كما هو حال الجميع من حولي.
- لكننا لسنا الجميع لنفعل كما يقوموا به، الصواب هو الحق وإن لم يفعله أحد، والخطأ يبقى كذلك ولو فعل المجتمع ما هو أسوأ منه.

أنا لا أستطيع إنكار وجود كثرة من شباب المجتمع الذين يقوموا الادعاء باحتراف الكتابة والإبداع، والتميز في مجالات الأدب، بالتحدث عن أسوأ خصال المجتمع أو أكثر القصص سطحية وجنونًا، بل إن ما زاد الأمر سوءًا هو تحويل عالم الأدب سواء كان (قصة، رواية، خواطر، أو شعر) من اللغة العربية

الفصحى إلى اللغة العامية واللهجة الخاصة بالبلد الذي أتى منه، كمبدأ للحرية في التعبير عن رأيه وثقافته، وحرية قلمه.

برأي الخاص (رفعت الجلسة) كانت رواية جيدة وإن امتزجت قليلًا بالحوارات العامية لتبيان جنسية الشخصيات، إلا أنها تملك من المعلومات والثقافة العامة والمبادئ الأساسية للكتابة، لكنني أعتقد أنَّكِ فعلتِ الأفضل اليوم بمساعدة الآخرين.

ابتسمت مريم لم تكن تعلم إذا ما كان يحاول عدم جرح مشاعرها أو محاولته لإيجاد شيء جيد بما يكفي وسط هذا السوء الذي تراه وتسمعه، لكنَّها قررت إخفاء الأمر وعدم النقاش فيه.

- عن نفسي قرأت العديد من الكتابات لروائيين شُبَّان وشابَّات في مقتبل العمر، كانت الأفضل على الإطلاق كل ما يحتاجون إليه هو بعض الدعم في مجال النشر والطباعة، للدخول نحو معارض الكتاب الدولي بواقعية قوية مع أخذ الدعم الإعلامي الكافي لما تستحقه، وخاصة كوننا نعيش في مجتمع يقرأ للتو!

قالت مريم بشيء من الحزن عن واقع صعوبة النشر ضمن أروقة الطرقات المزدحمة والوعرة في آن معًا.

بدأت حركة القطار السريعة تتباطأ شيئًا فشيئًا للإعلان عن بدء نهاية الرحلة، أما المسافرين فقد عادوا إلى أماكنهم المخصصة بعد توصية من المضيفين داخل المقطورات حفاظًا على

سلامتهم، وللتحقق من عدم وجود أي شخص داخل الممرات أثناء وقوف القطار فوق أرض المحطة.

توقف القطار عند محطته الأخيرة مُعلنًا الكابتن عن إنهاء الرحلة الأخيرة للمسافرين والوصول نحو وجهتهم بسلامة.

خرج المسافرين نحو البوابات العامة للقيام بختم الجوازات داخل النوافذ المخصصة للجنسيات، وقد كان ماجد يقف في الصف الأول المختص للأشخاص المغربيين، تذكر فجأة أنه يتوجب عليه الذهاب لطلب سيارة أجرة لنقله نحو منزل جدَّيه والذي يبعد عن المحطة ساعة كاملة بسبب انشغال جدَّه في أعمال الصيانة داخل المزرعة، لذلك قرر توديع مريم التي كانت صديقة جيدة خلال هذه الرحلة المُتعبة، وفي محاولات متكررة للبحث عنها خلال طابور المغتربين والأجانب، لم يلقَ أي نتيجة، فقد اختفت وكأنها لم تكن موجودة من قبل.

وعلى الرصيف خارج المحطة الأخيرة وقف ماجد يستنشق الهواء العليل، كانت النجوم في السماء تسطع معلنة عن ليلة صيفية جميلة، يداعب الهواء البارد شعره الأسود الكثيف.

ما أشبه حياة الإنسان برحلة القطار ردد في نفسه بمحاولة للاستمتاع بعطاء الطبيعة من حوله، كاد أن يغمض عينيه بهدوء قبل أن يشاهد مريم تقف على زاوية الرصيف المقابل له تنتظر وصول الحافلة التي تقل المسافرين نحو المطار.

ركض إليها مسرعًا؛ للحاق بها والتحدث معها قبل رحيلها بشكل نهائي وبأنفاس متسارعة وقف أمامها، لم تكن المسافة

التي قام بقطعها طويلة جدًا ليتعب لكن جسده المرهق من السفر الطويل هو ما جعل نبضات قلبه تتسارع.

- والآن إلى أين؟!

سألها ماجد راجيًا بقاؤها داخل المدينة لفترة أطول، مع معرفته المسبقة بوجود مطار دولي قريب من المكان، لم يكن الأمر بوجود مشاعر حب لامست قلبه، أو فضوله لمعرفتها أكثر عن قرب، بل كان الأمر محض شعور غريب بكونها روح سحابة صيفية قريبة جدًا سهلة المنال، مريحة وهادئة لكنها بعيدة المدى سرعان ما تنقشع مختفية داخل السماء.

لو أنه استطاع تشبيهها بنجمة صغيرة سيتمكن من رؤيتها عند كل مساء أما وهي سحابة صيف عابرة فسيكون الأمر صعب بالنسبة له لرؤيتها.

- إلى المنزل حان وقت الرحيل إلى الوطن، لقد تاق قلبي لعناق بين أحضان دمشق، وأيضًا لعناق عائلتي الصغيرة، وبالأخص أطفالي الصغار.

أدرك فجأة بكونها عابرة قلوب بين البلدان بجواز سفر كاتبة كانت تعبُرُ الحدود للوصول نحو حلمها، والعودة نحو أحضان الوطن كبطلة على الورق، وأم لطفلين ينتظران عودتها بقصة جديدة تكتبها عنهما يكونان أميران مملكة من الخيال تصنع داخلها أحلامهم الجميلة وتحيكَ لهما حصنًا منيعًا تقيهما قسوة الحياة ووعورة طرقاتها.

مدَّ ماجد يده ليصافحها مودِّعًا لكن عدم مبادرتها ووضع يدها بإشارة فوق صدرها أخجلته وجعلته يرتبك معيدًا إنزالها مرة أخرى.

- لن أستطيع مصافحتك قبل وداعنا، ولهذه قصة طويلة.... قالت مريم بشيء من الإذعان عن عدم مصافحته.

أكملت قائلة: لقد كانت رحلة جميلة، مضى فيها الوقت بسرعة كبيرة لم أكن لأتوقعها، حمَلَتْ في طيَّاتها الكثير من الأحداث والأصدقاء والقلوب الدافئة أيضًا، أعتقد أنني علمتُ الآن لماذا كان الأدباء والكتاب يستعينون بالقطار لحل العقد الصعبة أو مشكلة الورقة البيضاء.

- ألا يوجد واحد في دمشق؟! ردَّ مستفسرًا.
- نعم يوجد، لكنه قديم جدًا والسكك الحديدية بحاجة إلى الإصلاح، مع وجود حرب خرجنا منها بعد عشرة سنوات، سننتظر قليلًا قبل استخدامه، لكنني أعتقد كونه سيكون رائع كالذي تمتلكونه، فسوريا وإن كانت أصغر من المغرب إلا أنها تملك من جمال الطبيعة كما هو حال بلادكم.

ودَّعت مريم ماجد ببضع كلمات بعد أن قامت بكتابة جملتها الأخيرة فوق الورقة الأولى من روايتها للذهاب نحو المطار الذي ستخرج منه عائدة إلى دمشق.

أما هو فقد عاد إلى مقاعد الموقف منتظرًا سيارة الأجرة التي ستقله نحو منزل جديه، وضع الكتاب أمامه وفوق المقعد، كان

يتبادل معه نظرات خاطفة، قبل أن يعود لفتحه مرة أخرى ويقرأ الجملة الأخيرة التي تركتها فوق الصفحات ليتأكد من مرورها أمامه ولكونها لم تكن خيالًا.

" صديقي العابر، هكذا هي الحياة كرحلتنا داخل ذلك القطار، نلتقي بأشخاص آخرين من جميع الأجناس، منهم الأصدقاء والعائلة، ومنهم العابرين، أثناء الرحلة سنخوض في مغامرات كثيرة ربما نذرف دموع كما لم نبكي من قبل، أوقات نضحك لها من القلب كالأطفال، لكنها تبقى الحياة؛ لذلك عشها كما هي ودون التفكير بحلوها ومرها، وإن كانت طويلة بعض الشيء إلا أنها سرعان ما ستنقضي لا محالة.

نصيحتي لك كصديقة عابرة خُذْ معك قالب من الحب المغطس بالشوكولا لجدتك، والبعض من الامتنان والعناق لجدك، وكُنْ على قيد الحياة، وحدهم الفاقدين للذَّة الحياة وجمالها هم الموتى، لذلك ابقِ قلبك على قيدها وأسعد بها كما هي"

رحلة في قطار

مروة قباني

صديقي العابر، هكذا هي الحياة كرحلتنا داخل ذلك القطار، نلتقي بأشخاص آخرين من جميع الأجناس، منهم الأصدقاء والعائلة، ومنهم العابرين، أثناء الرحلة سنخوض في مغامرات كثيرة ربما نذرف دموع كما لم نبكي من قبل، أوقات نضحك لها من القلب كالأطفال، لكنها تبقى الحياة.